

عبد الحميد رشك

في
رَحَابِ التَّقْسِيرِ

الجزء الثامن

المكتبة المصرية الحديث

الإصرار على العناد بالباطل

* وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبَلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يُجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

المفردات : ﴿ وحشرنا ﴾ : جمعنا . ﴿ قبلا ﴾ : جمع قبيل كـ رغيف ورغف ، أى ضمناً وكفلاء ، وقبلأ أى مواجهة ومقابلة ، ومنه قيل : قبل الرجل ودبره ، وقرىء قبلاً أى عياناً ومواجهة . ﴿ شياطين ﴾ : قال ابن عباس : كل عات متمرّد من الجن والإنس فهو شيطان (يوحى) الإيحاء الإعلام مع الخفاء والسرعة كالإيحاء والمراد ما يوسوس به الشياطين من الجن والإنس . ﴿ زخرف ﴾ : الزخرف الزينة ، ومنه سمي الذهب زخرفاً ، وجعل تمويههم زخرفاً لترينهم إياه . ﴿ غروراً ﴾ : خداعاً باطلاً . ﴿ ولتصغى ﴾ : صغى إليه مال وصغى فلان وصغوه معك ميله وهواه . ﴿ وليقترفوا ﴾ : اقتراف المال اكتسبه ، والذنب اجتزره .

روى عن ابن عباس أن النبي ﷺ أتى جماعة من كفار مكة وزعمائها وقالوا : أرنا الملائكة يشهدون بأنك رسول الله ، أو ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم . أحق ما تقول أم باطل ؟ أو اثنتا بالله والملائكة قبلاً فنزلت الآية . وهذا تفصيل لما أجمل في قوله تعالى : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » مع تسليّة النبي ﷺ بذكر طبائع الناس ، وما يلاقيه الأنبياء في دعوتهم .

ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة فرأوهم بأعينهم المرة بعد المرة ، كما قالوا : ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾ ^(١) ولو كلمهم الموتى بأن نحيبهم لهم ، فيخبروهم بما رأوا من ثواب وعقاب كما قالوا : ﴿ فأتوا بآبائنا ﴾ ^(٢) . ولو أننا حشرنا عليهم ، وجمعنا لهم من كل شيء من الآيات والدلائل غير الملائكة والموتى معانية ومواجهة ليكون ذلك دليلاً على صدق دعواك ، أو جمعنا عليهم كل شيء ضمناً وكفلاء بصفة ما بشرنا به وأنذرنا ، لو حصل كل هذا ما كان من شأنهم الإيمان ، ولا كان استعدادهم يقتضى ذلك ، لأنهم ينظرون إلى الآيات نظرة تعنت وعداوة ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، فلم ينظروا إلى الآيات نظرة جزئية للهداية ، والعبرة حتى يتعظوا ويؤمنوا ﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن

(١) الآية ٢١ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٣٦ من سورة الدخان .

يفقهوه وفي آذانهم وقراً ﴿١﴾ لكن لو شاء الله إيمانهم لآمنا : ولكنه يتركهم وفطرتهم التي تتنافى مع سلوك طريق الخير والانتفاع بهدى القرآن ﴿٢﴾ لا إكراه في الدين ﴿٣﴾ مع تبصرتهم وهدايتهم إلى طريق الخير والشر ﴿٤﴾ وهديناه النجدين ﴿٥﴾ .

ولكن أكثر المشركين يجهلون ذلك فيقسمون بالله جهد أيمانهم : لئن جاءتهم آية مما اقترحوا ليؤمنن بها ، وما يشعرون بقلوبهم وما انطوت عليه ، وبما ختم عليها حتى صارت كأنها من أكنة ، وقيل : ولكن أكثر المسلمين يجهلون نفوس الكفار وما هي فيه ، فيميلون إلى إنزال الآيات المقترحة عليهم يؤمنون . وهكذا سنة الله في الخلق . منهم مهتد وكثير منهم فاسقون ، لا يرجعون إلى صوابهم أبداً ، وهكذا سنته مع أنبيائه جعل لكم منهم أعداء من الجن والإنس خصوصاً أولى العزم منهم ليعظوا بدرجات الصبر والعمل ، فالنبي ﷺ يدعو إلى الخير جاهداً ، والمشركون يدعون إلى الخير كما يزعمون جهدهم ، فمن باب تنازع البقاء لأبد من حصول العداوة والبغضاء والعاقبة للمتقين ﴿٦﴾ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴿٧﴾ . كما جعلنا هؤلاء أعداء لك جعلنا لكل نبي جاء قبلك أعداءهم شياطين الإنس والجن ، روى أبو ذر رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال له عقب صلاة : يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن ؟ قال : قلت يا رسول الله : وهل للإنس شياطين ؟ قال نعم : ﴿٨﴾ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴿٩﴾ الآية ﴿١٠﴾ وقال مجاهد وقتادة والحسن أن من الإنس شياطين ومن الجن شياطين ، أما مظهر عداوة هؤلاء للنبي والمسلمين فإنه يوحى بعض شياطين الجن إلى بعض شياطين الإنس وكذلك يوحى بعض الجن إلى بعض الإنس إلى بعض وعن مالك بن دينار أن شيطان الإنس أشد على من شيطان الجن ، إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن عنى ، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عياناً .

يوحى بعضهم إلى بعض بالقول المزخرف المزين ، وبالوسوسة وبالإغراء بالمعاصي والتمويه والخداع بالباطل ، ولو شاء ربك ما فعلوه أبداً فذرهم وما يفترون ، يفعلون هذا ليغروهم بالفساد ولتصغى إليه قلوب الكفار والفُسَّاق . فإنها تميل إلى الشر وتجنح إلى الفساد ، لأنه الموافق لإهوائهم ، وليترتب على ذلك أن يرضوه ويطمئنوا إليه وأن يكتسبوا معه من الآثام والمعاصي ما هم مكتسبون .

الشهادة للنبي ﷺ بالصدق

أَفَغَيْرَ اللَّهِ أُبْتَغَىٰ حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ اتَّبَعَتْهُمْ يُكْتَبُ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢﴾

(١) الآية ٤٦ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة .

(٣) الآية ١٠ من سورة البلد .

(٤) الآية ٥١ من سورة غافر .

(٥) أخرجه الترمذى في المناقب (١٧) . والإمام

أحمد في (٥ : ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٦٥) .

المفردات : ﴿ حكما ﴾ : الحاكم من يتحاكم إليه الناس ، ويحكم بينهم بالحق أو بغيره ، والحكم من يحكم بالحق فقط كما قال القرطبي . ﴿ مفصلاً ﴾ : مبيناً فيه الحق إلى حد لا يحتاج معه إلى شيء خارج عنه والمراد هنا أنه كلمة الله وافية في الإعجاز والدلالة على صدق الرسول . ﴿ لا مبدل ﴾ : لا مغير .

ما لكم تطلبون آيات الله حكماً بيننا ؟ وليس لي أن أتعدى حكم الله ولا أن أتجاوزه إذ هو الحكم العدل ، وهو الذي أنزل إليكم القرآن كتاباً مفصلاً فيه كل شيء مبيناً لكل حكم ، جامعاً لكل خير ، فيه الهدى والنور ، والعلم والعرفان ، وهو المعجزة الباقية الدالة على صدق رسالتي لما فيه من الآيات ولما أعجز جهابذة البلاغة وأرباب البيان ، مع التحدى الصارخ لهم .. شهد لي بالصدق ، وعليكم بالكذب والبهتان ، والذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنصارى . يعلمون أنه الحق المنزل من عند الله مشتملاً على النور والهدى ، ومتلبساً بالحق والعلم إذ هو من جنس الوحي الذي نزل عليهم ، وقد جاءهم في كتبهم البشارة بالنبى ﷺ وصفته ، فهم أدرى الناس به ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾^(١) وقد اعترف بذلك من أنار الله بصيرته منهم واهتدى .

والخلاصة أنكم تتحكمون في طلب المعجزات والآيات الدالة على صدق الرسول ، وقد حصل ذلك بوجهين :

(أ) القرآن وهو المعجزة الباقية القائمة مقام قوله تعالى : [صدق عبدى فى كل ما يبلغه عنى] .

(ب) معرفة أهل الكتاب وشهادتهم للنبي محمد بالصدق .

فإذا كان هذا حاصلًا فلا تكونن من الشاكين ، وهذا لون من ألوان التهيج والإلهاب كقوله «فلا تكونن من المشركين» .

وتمت كلمة ربك ، وقرئ كلمات ربك ، نعم تم كلام الله فلا يحتاج إلى شيء آخر وأصبح كافياً وافياً في الإعجاز ، والدلالة على الصدق ، وقيل تمت كلمة ربك فيما وعدك به من النصر على الأعداء ، وأوعد به المستهزئين والكافرين من الخذلان والهلاك ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ إنهم لهم المنصرون ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾^(٢) .

نعم تمت كلمة ربك صدقاً فيما أخبر به ، وعدلاً فيما حكم به ، ومن أصدق من الله قيلاً ؟ ومن أعدل من الله حكماً ؟

ثم كان كل ما أخبر جل شأنه من أمر ونهى ، ووعد ووعد ، وقصص وخبر صادقاً عادلاً ، لا مبدل لكلماته ، ولا راد لقضائه فهو القادر على كل شيء ، الحكيم فى كل صنع ، السميع لكل قول ، العليم بكل حال ووضع سبحانه وتعالى عما يشركون .

(٢) الآيات ١٧١ - ١٧٣ من سورة الصافات .

(١) الآية ٢٠ من سورة الأنعام .

إرشادات وأحكام

وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ^ج إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ^ج وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ^ج وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ^ج إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجْدِلُواكُمْ ^ج وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

المفردات : ﴿ يخرصون ﴾ : يحدسون ويقدرّون والخرص الحدس والتخمين، والخرص يقطع بما لا يجوز القطع به إذ لا يقين معه . ﴿ فصل ﴾ : بين وأزال عنكم اللبس في المحرمات . ﴿ الإثم ﴾ : القبيح وفي لسان الشرع ما حرمه الله . ﴿ لفسق ﴾ : معصية وخروج عن دائرة الدين .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ هذا إخبار من العليم الخبير بواقع أهل الأرض فالأكثرية والأغلبية إن أطعتم أضلّوك عن سبيل الله وهذا كقوله جل شأنه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ ^(١) ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ ^(٢) ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ^(٣) ﴿ ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ ^(٤) ﴿ ولقد ضلّ قبلهم أكثر الأولين ﴾ ^(٥) ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ ^(٦) وكقوله تعالى ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ ^(٧) وكقوله جل شأنه ﴿ وإن كثيراً من الخلقاء ليغنى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ﴾ ^(٨) .

قال أحد الحكماء :

تعزّينا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا إن قليل وديننا صحيح ودين الآخرين عليل

(٥) الآية ٧١ من سورة الصافات .

(٦) الآية ١٠٣ من سورة يوسف .

(٧) الآية ١٣ من سورة سبأ .

(٨) الآية ٢٤ من سورة ص .

(١) الآية ١٧ من سورة هود .

(٢) الآية ٢٤٣ من سورة البقرة .

(٣) الآية ١٨٧ من سورة الأعراف .

(٤) الآية ٧١ من سورة الزخرف .

ثم يخبر جلت قدرته عن منشأ ضلال هؤلاء فيقول ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فاتِّباع الظن يفيد عدم استقرار اليقين في نفوسهم ، والخرص هو التخمين ، وكل من الظن والتخمين لا يفيد يقيناً ، إنما يفيد ظناً وتخميناً ، وإن الذي أخبر بهذا هو من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

يقول سبحانه ﴿إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مِنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فما دام ربك أعلم بحال هؤلاء فلا تتبع أهواءهم ، وتوكل على الله إنك على الحق المبين ، قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، فالعلم صفة انكشاف ، وهي صفة من صفات الله سبحانه وتعالى ، فبالعلم نعلم أن الله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، فقد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، فهو سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . قوله تعالى ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ في هذه الآية إخبار من الله تعالى بإباحة الأكل من الذبائح التي ذكر اسم الله عليها ، إن كنتم بآياته مؤمنين ، فكلوا منها دون ما خوف ولا حرج ، ولماذا لا تأكلون منها وأى شيء يمنعكم من ذلك وقد ذكر اسم الله عليها وقد شاءت حكمة الله تعالى وإرادته أن فصل لكم وبين ووضح ما حرمه عليكم ، جاء ذلك في قوله تعالى ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أَوْ أَهْلٌ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾^(١) وجاء في ذلك قوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنْزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذَبَحَ عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢) .

وفي الآية التي بين أيدينا وهي قوله تعالى ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ في هذه الآية ما يفيد أن المضطر له أن يتناول من المحرم ما يبعد عنه الهلاك ، فإذا كانت الضرورات تبيح المحظورات فإن الضرورة تقدر بقدرها ، قال تعالى : ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ أَوْ أَىْ جُوعٍ وَمَسْغَبَةٍ أَوْ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقال جل شأنه ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣) .

قوله تعالى ﴿وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ أى المتجاوزين لحدود الله وهم الذين أحلوا وحرّموا حسب أهواءهم ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لَذُكُورِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾^(٤) .

(٣) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ١٣٩ من سورة الأنعام .

(١) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٣ من سورة المائدة .

وهم الذين سبوا السائبة وبحروا البحيرة فأضلوا الناس بغير علم ﴿١﴾ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴿٢﴾ قال تعالى ﴿٣﴾ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴿٤﴾ .

وقال جل شأنه ﴿٥﴾ قل رأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل الله أذن لكم أم على الله تفترون . وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴿٦﴾ قوله تعالى ﴿٧﴾ وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون ﴿٨﴾ قال قتادة : ﴿٩﴾ وذروا ظاهر الإثم وباطنه أي سره وعلايته قليله وكثيره . وهذا كقوله تعالى ﴿١٠﴾ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وإن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴿١١﴾ .

ولذلك حكم الله تعالى على من اقترف الإثم ظاهراً أو باطناً بقوله ﴿١٢﴾ إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون ﴿١٣﴾ عن النواس بن سمعان قال سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال « الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه » ﴿١٤﴾ .

قوله تعالى ﴿١٥﴾ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ﴿١٦﴾ وفي هذه الآية الكريمة أحكام شرعية نذكر تفصيلها عن العلامة ابن كثير ثم نذكرها ملخصة عن تفسير المراغي .

قال العلامة ابن كثير :

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها ، وإن كان الذابح مسلماً ، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة على ثلاثة أقوال فمنهم من قال : لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة ، وسواء متروك التسمية عمداً أو سهواً ، وهو مروى عن ابن عمر ونافع مولاة وعامر الشعبي ومحمد بن سيرين ، وهو رواية عن الإمام مالك ، ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين ، وهو اختيار أبي ثور وداود الظاهري ، واختار ذلك أبو الفتوح محمد ابن محمد بن علي الطائي من متأخري الشافعية في كتابه الأربعين ، واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية وبقوله في آية الصيد ﴿١٧﴾ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴿١٨﴾ ثم قد أكد في هذه الآية بقوله ﴿١٩﴾ وإنه لفسق ﴿٢٠﴾ والضمير قيل عائد على الأكل ، وقيل عائد على الذبح لغير الله .

(١) الآية ١٠٣ من سورة المائدة .

(٢) الآيتان ١١٦ ، ١١٧ من سورة النحل .

(٣) الآيتان ٥٩ ، ٦٠ من سورة يونس .

(٤) الآية ٣٣ من سورة الأعراف .

(٥) أخرجه مسلم في البر (١٤ ، ١٥) . والترمذي في الزهد (٥٢) . والدارمي في البيوع (٢) . والإمام أحمد في (٤ : ١٨٢ ، ٢٢٧ ،

(٢٢٨) وفي (٥ : ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦) .

(٦) الآية ٤ من سورة المائدة .

وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد كحديثي عدى بن حاتم وأبي ثعلبة « إذا أرسلت كليك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك »^(١) وهما في الصحيحين وحديث رافع بن خديج « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه » وهو في الصحيحين أيضاً وحديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال للجن « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه »^(٢) رواه مسلم وحديث جندب بن سفيان البجلي قال : قال رسول الله ﷺ « من ذبح قبل أن يصلي فليذبح مكانها أخرى ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله »^(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها أن ناساً قالوا يا رسول الله إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا ! قال : « سموا عليه أنتم واكلوا »^(٤) قالت وكانوا حديثي عهد بالكفر رواه البخاري .

ووجه الدلالة أنهم فهموا أن التسمية لا بد منها ، وخشوا أن لا تكون وجدت من أولئك لحدائث إسلامهم ، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل ، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وجدت ، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد . والله أعلم .

والمذهب الثاني في المسألة أنه لا يشترط التسمية بل هي مستحبة ، فإن تركت عمداً أو نسياناً لا يضر ، وهذا مذهب الإمام الشافعي رحمه الله وجميع أصحابه ، ورواية عن الإمام أحمد نقلها عنه حنبل ، وهو رواية عن الإمام مالك ، ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه ، وحكى عن ابن عباس وأبي هريرة وعطاء بن أبي رباح والله أعلم . وحمل الشافعي الآية الكريمة ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ على ما ذبح لغير الله كقوله تعالى ﴿ أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لَغِيرِ اللَّهِ بِهِ ﴾^(٥) وقال ابن جريج عن عطاء « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » قال : ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان ، وينهى عن ذبائح الجوس ، وهذا المسلك الذي طرقة الإمام الشافعي قوى ، وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل الواو في قوله ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ حالية أى : لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه في حال كونه فسقاً ، ولا يكون فسقاً حتى يكون قد أهل به لغير الله .

ثم ادعى أن هذا متعين ولا يجوز أن تكون الواو عاطفة ، لأنه يلزم فيه عطف جملة اسمية خبرية على جملة فعلية طلبية ، وهذا ينتقص عليه بقوله ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ فإنها عاطفة لا محالة ، فإن كانت الواو التي ادعى أنها حالية صحيحة على ما قال امتنع عطف هذه عليها فإن عطف

(١) أخرجه البخاري في الذبائح (٢ ، ٣ ، ٧ ، ١٠) . ومسلم في الصيد (١ - ٣) . وأبو داود في الأضاحي (٢٢) . والترمذي في

الصيد (١ ، ٦) . والنسائي في الصيد (١ - ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١) وابن ماجه في الصيد (٣)

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (١٥٠) . والترمذي في تفسير (سورة ٤٦ : ٣) . والإمام أحمد في (١ : ٤٣٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩) .

(٣) أخرجه البخاري في الأضاحي (١٢) وفي العيدين (٢٣) وفي الذبائح (١٢ ، ١٧) . وأخرجه مسلم في الأضاحي (١ - ٣) .

والترمذي في الأضاحي (١٢) . والنسائي في الضحايا (٤ ، ١٧) . وابن ماجه في الأضاحي (١٢) .

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (١٣) وفي البيوع (٥) وفي الذبائح (٢١) . وأبو داود في الأضاحي (١٣ ، ١٩) . والنسائي في الضحايا

(٢١ ، ٣٦ ، ٣٩) وابن ماجه في الذبائح (٤) . والإمام مالك في الذبائح (١) .

(٥) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام .

على الطلبية ، ورد عليه ما أورد على غيره ، وإن لم تكن الواو حالية بطل ما قال من أصله . والله أعلم .
وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يحيى بن المغيرة أنبأنا جرير عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في الآية ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ قال هي الميتة . ثم رواه عن أبي زرعة عن يحيى ابن أبي كثير عن ابن لهيعة عن عطاء وهو ابن السائب به .

وقد استدلل لهذا المذهب بما رواه أبو داود في المراسيل من حديث ثور ابن يزيد عن الصلت السدوسي مولى سويد بن ميمون أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم بن حبان في كتاب الثقات قال : قال رسول الله ﷺ : « ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله » وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطني عن ابن عباس أنه قال : « إذ ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله » واحتج البيهقي أيضاً بحديث عائشة رضي الله عنها المتقدم أن ناساً قالوا يا رسول الله إن قوماً حديثي عهد بجاهلية يأتوننا بلحم لا ندرى أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال « سموا أنتم وكلوا » قال : فلو كان وجود التسمية شرطاً لم يرخص لهم إلا مع تحققها والله أعلم .

والمذهب الثالث في المسألة أن ترك البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضر وإن تركها عمداً لم تحل ، هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك ، وأحمد بن حنبل ، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه ، وإسحق بن راهويه ، وهو محكى عن علي وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس والحسن البصري وأبي مالك وعبد الرحمن بن أبي ليلى وجعفر بن محمد وربيعة بن أبي عبد الرحمن ونقل الإمام أبو الحسن المرغيناني في كتابه الهداية الإجماع قبل الشافعي على تحريم متروك التسمية عمداً ، فلهذا قال أبو يوسف والمشايخ لو حكم حاكم بجواز بيعه لم ينفذ لمخالفة الإجماع وهذا الذي قاله غريب جداً وقد تقدم نقل الخلاف عمن قبل الشافعي والله أعلم . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله من حرم ذبيحة الناس فقد خرج من قول جميع الحجة وخالف الخبر الثابت عن رسول الله ﷺ في ذلك يعني ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس الأصم حدثنا أبو أمية الطرسوسي حدثنا محمد بن يزيد حدثنا معقل ابن عبيد الله عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « المسلم يكفيه اسمه إن نسي أن يسمى حين يذبح فليذكر اسم الله وليأكله »

وهذا الحديث رفعه خطأ . أخطأ فيه معقل بن عبيد الله الجزري ، فإنه وإن كان من رجال مسلم إلا أن سعيد بن منصور وعبد الله بن الزبير الحميدي روياه عن سفيان بن عيينة عن عمرو عن أبي الشعثاء عن عكرمة عن ابن عباس من قوله فزادا في إسناده أبا الشعثاء ووثقاه ، وهذا أصح ، نص عليه البيهقي وغيره من الحفاظ ، ثم نقل ابن جرير وغيره عن الشعبي ومحمد بن سيرين أنهما كرها متروك التسمية نسياناً والسلف يطلقون الكراهة على التحريم كثيراً والله أعلم . إلا أن من قاعدة ابن جرير أنه لا يعتبر قول الواحد ولا الاثنين مخالفاً لقول الجمهور فيعده إجماعاً فليعلم هذا والله الموفق . قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو أسامة عن جبير بن يزيد قال سئل الحسن [سأله رجل] أتيت بطير كذا فمناه ما قد ذبح فذكر اسم الله عليه ومنه ما نسي أن يذكر اسم الله عليه ، واختلط الطير فقال الحسن : كله كله ،

قال وسألت محمد بن سيرين فقال : قال الله ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ . واحتج لهذا المذهب بالحديث المروى من طرق عند ابن ماجه عن ابن عباس وأبي هريرة وأبي ذر وعقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ « ان الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »^(١) وفيه نظر والله أعلم . وقد روى الحافظ أبو أحمد بن عدي من حديث مروان بن سالم القرقيساني عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى فقال النبي ﷺ « اسم الله على كل مسلم » ولكن هذا إسناده ضعيف فإن مروان بن سالم القرقيساني أبا عبد الله الشامي ضعيف تكلم فيه غير واحد من الأئمة ، والله أعلم .

وقد أفردت هذه المسألة على حدة وذكرت مذاهب الأئمة وما أخذهم وأدلتهم ووجه الدلالات والمناقضات والمعارضات والله أعلم . وقد جاء في تفسير المراغي مانصه في قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ﴾ أى لا تأكلوا أيها المؤمنون مما مات فلم تذبحوه ، ولا ما أهل لغير الله به مما ذبحه المشركون لأوثانهم ، فإن أكل ذلك فسق ومعصية كما جاء في الآية الأخرى ﴿ أو فسقاً أهل لغير الله به ﴾ ثم لخص الأحكام فقال : قال مالك : كل ما ذبح ولم يذكر اسم الله تعالى عليه فهو حرام ، ترك الذكر عمداً أو سهواً .

وقال أبو حنيفة : إن ترك الذكر عمداً حرم وإن ترك نسياناً حل .
وقال الشافعي : متروك التسمية عمداً أو سهواً حلال إذا كان الذابح مسلماً .

قوله تعالى ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ أى وأن شياطين الإنس والجن الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ليوحون إلى أوليائهم بالوسوسة والتلقين الخادع ما يجادلونكم به من الشبهات ، وإن أطعتموهم فيها فجاريتموهم في هذه العبادة الوثنية الباطلة إنكم لمشركون مثلهم ، فإن التعبد لغير الله شرك ، كدعاء غير الله ، وسائر ما يتوجه به من العبادات لغيره ، وإن كان لأجل التوسل بذلك الغير إليه ليقرب المتوسل إليه زلفى ، ويشفع له عنده كما يفعل أهل الوثنية .

وأولياء الشياطين لم يجادلوا أحداً من المؤمنين فيما لم يذكر اسم الله عليه ، ولا اسم غيره عليه من الذبائح المعتادة التى لا يقصد بها العبادة ، فمن يأكل هذه الذبائح لا يكون مشركاً ، وكذلك من يأكل الميتة بل يكون عاصياً إن لم يكن مضطراً .

قال عكرمة : وأن الشياطين يعنى : مردة الجوس ليوحون إلى أوليائهم من مشركى قريش زخرف القول ، ليصل إلى نبي الله وأصحابه ممن أكل الميتة ، ذلك أنه لما نزل تحريم الميتة سمعه الجوس من أهل فارس فكتبوا إلى قريش وكانت بينهم مكاتبة : إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ، ثم

(١) أخرجه ابن ماجه في الطلاق (١٦) .

يزعمون أن ما يذبحونه حلال ، وما يذبحه الله حرام ، فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء فأنزل الله هذه الآية .

ثم قال : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ يعنى فى استحلال الميتة ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ قال الزجاج : وفيه دليل على أن كل من أحل شيئاً مما حرم الله تعالى أو حرم شيئاً مما أحل الله تعالى فهو مشرك لأنه أثبت مشرعاً سوى الله وهذا هو الشرك بعينه .

وما يذبح عند استقبال ملك أو أمير أو وزير أفتى بعض الحنفية بتحريم أكله لأنه مما أهل به لغير الله وقال بعض الشافعية هم إنما يذبحونه استبشاراً بقدمه فهو كذبح العقيقة لولادة المولود ومثل هذا لا يوجب التحريم وهذا هو الراجح الذى عليه المعول .

أهل الحق وأهل الباطل

أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيِيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾

المفردات : ﴿ أكبر ﴾ : أكبر القوم رؤساؤهم . ﴿ مجرميها ﴾ : الإجرام ما فيه الفساد والضرر من الأعمال . والمجرمون الفاعلون لهذه الأعمال ﴿ قرية ﴾ : البلد الذى يجمع الناس كالعاصمة مثلاً . وقد تطلق على الشعب والأمة . ﴿ يَمْكُرُوا ﴾ : المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة .

قوله تعالى ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيِيْنَاهُ ﴾ المراد بالميت ميت القلب ، وهذا حال الناس قبل الهداية ، فإذا ما اهتدوا زادهم الله هدى وآتاهم تقواهم ، فأصبحوا أحياء عندما تسرى فيهم روح الهداية ، ويجعل الله لهم نوراً يمشون به فى الناس ، وذلك كما قال جل شأنه : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) ففى هذه الآية العظيمة وصف الله تعالى القرآن الكريم بأنه روح ونور وهاد .

روح يحيى الله به الموات ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيِيْنَاهُ ﴾ ونور يبدد غياهب الظلمات ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ وهاد يهذى إلى سواء الصراط إنه حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم والهادى إلى الصراط المستقيم فاعجب معى لأمة ربها نور ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ وقرآنها نور ، فأمنوا بالله ورسوله والنور الذى أرسلنا ونبيها نور ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ (٢) كيف ترضى لنفسها أن تعيش فى غياهب الظلمات .

(١) الآية ٥٢ من سورة الشورى .

(٢) الآية ١٥ من سورة المائدة .

إذا زرت بعد البيت قبر محمد
وفاضت من الدمع العيون مهابة
وأشرق نور تحت كل ثنية
فقل لرسول الله يا خير مرسل
شعوبك في شرق البلاد وغربها
بأيامهم نوران ذكر وسنة
وأبصرت مشوى الأعظم العشرات
لأحمد بين الستر والحجرات
وضاع أريج تحت كل حصاة
أبك ما تدرى من الحسرات
كأصحاب كهف في عميق سبات
فما بالهم في حالك الظلمات

قوله تعالى ﴿ كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى ليتين به الفرق الشاسع والبون البعيد بين أهل الحق وأهل الباطل ، والمثل حال عجيبة يتبين بها الفرق بين من جاء المثل في شأنه وبين غيره ، قال تعالى ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ﴾ ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور * إن أنت إلا نذير ﴿^(١) وقال جل شأنه : ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً افلا تذكرون ﴾^(٢) وقال تبارك اسمه : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾^(٣).

قوله تعالى ﴿ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ أى مثل هذا الذى سبق ومن مثله في الظلمات مثل ذلك التزيين الذى زين الشيطان به أعمال الكافرين فرأوا أعمالهم حسنة ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾^(٤) وقال جل شأنه ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتمون ﴾^(٥) قوله تعالى ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرمين ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ﴾ أى كما جعلنا في قريتك يا محمد أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك كذلك كانت الرسل من قبلك يتلون بذلك ثم تكون لهم العاقبة كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ﴾^(٦) وقال تعالى ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ﴾^(٧) قيل معناه أمرناهم بالطاعة فخالفوا فدمرناهم وقيل أمرناهم أمراً قديراً كما قال ههنا ﴿ ليمكروا فيها ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أكابر مجرمين ليمكروا فيها ﴾ قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿ أكابر مجرمين ليمكروا فيها ﴾ قال سلطان شرارهم فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب وقال مجاهد وقتادة ﴿ أكابر مجرمين ﴾ عظماءها قلت وهكذا قوله تعالى ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴿^(٨) وقوله تعالى ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على

(١) الآية ٢٤ من سورة النمل .

(٢) الآية ٣١ من سورة الفرقان .

(٣) الآية ١٦ من سورة الإسراء .

(٤) الآية ٣٤ ، ٣٥ من سورة سبأ .

(١) الآيات ١٩ - ٢٣ من سورة فاطر .

(٢) الآية ٢٤ من سورة هود .

(٣) الآية ١٩ من سورة الرعد .

(٤) الآية ٨ من سورة فاطر .

آثارهم مقتدون ﴿١﴾

والمراد بالمكر ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال كقوله تعالى إخباراً عن قوم نوح : ﴿ومكروا مكرًا كبيرًا﴾ ﴿٢﴾ وقوله تعالى ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ﴿٣﴾ .

وقوله تعالى ﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾ أى وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلوه إلا على أنفسهم ، كما قال تعالى ﴿وليحملن أثقالهن وأثقالاً مع أثقالهن﴾ ﴿٤﴾ وقال ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون﴾ ﴿٥﴾

صورة من عنادهم

وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلُ اللَّهِ أَفَلَا يَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

المفردات : ﴿صَغَارٌ﴾ : الصغار الذل والهوان ، والصغر القلة في المحسوسات .
﴿أَجْرَمُوا﴾ : ارتكبوا ما فيه جرم .

قوله تعالى ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُلُ اللَّهِ أَفَلَا يَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أى إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، أى حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة ، كما تأتى إلى الرسل كقوله جل وعلا ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ ﴿٦﴾

وقوله ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أى هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه كقوله تعالى ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ * أنهم يقسمون رحمت ربك ﴿٧﴾ يعنون لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير جليل مبجل في أعينهم ﴿من القريتين﴾ أى من مكة والطائف وذلك أنهم قبحهم الله كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغيا وحسداً وعناداً واستكباراً كقوله تعالى مخبر عنه ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً لهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ ﴿٨﴾

(٥) الآية ٢٥ من سورة النحل .

(٦) الآية ٢١ من سورة الفرقان .

(٧) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة الزخرف .

(٨) الآية ٣٦ من سورة الأنبياء .

(١) الآية ٢٣ من سورة الزخرف .

(٢) الآية ٢٢ من سورة نوح .

(٣) الآيات ٣١ -- ٣٣ من سورة سبأ .

(٤) الآية ١٣ من سورة العنكبوت .

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يتخذونك إِلا هزواً هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴾^(١)

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾^(٢) هذا وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه وطهارة بيته ومرباه ومنشئه صلى الله وملائكته والمؤمنون عليه حتى أنهم كانوا يسمونه بينهم قبل [أَنْ يُوْحَى إِلَيْهِ «الْأَمِين»] وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم وكيف نسبه فيكم؟ قال هو فينا ذو نسب قل هل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال لا - الحديث بطوله الذي استدلل ملك الروم بطهارة صفاته عليه السلام على صدق نبوته وصحة ما جاء به. روى الإمام أحمد بإسناده عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إِنْ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشاً وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي هَاشِمٍ »^(٣) انفراد بإخراجه مسلم .

وفي صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « بَعَثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قُرُوناً فَقُرْنَا حَتَّى بَعَثْتُ مِنَ الْقُرُونِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ »^(٤) وروى الإمام أحمد بإسناده عن المطلب ابن أبى وداعة قال : قال العباس بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس فصعد المنبر فقال « مَنْ أَنَا ؟ » قالوا أنت رسول الله فقال : « أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلُبِ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ وَجَعَلَهُمْ فَرِيقَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فَرَقِهِ وَخَلَقَ الْقِبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ وَجَعَلَهُمْ يَبُوتَا فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ يَبُتاً فَأَنَا خَيْرُكُمْ يَبُتاً وَخَيْرُكُمْ نَفْساً »^(٥)

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « قَالَ لِي جِبْرِيلُ قَلْبْتَ الْأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا فَلَمْ أَجِدْ رَجُلًا أَفْضَلَ مِنْ مُحَمَّدٍ وَقَلْبْتَ الْأَرْضَ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا فَلَمْ أَجِدْ بَنِي أَبٍ أَفْضَلَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ » رواه الحاكم .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « إِنْ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ فَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ فَجَعَلَهُمْ وَزَرَاءَ نَبِيِّهِ يَقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ فَمَا رَأَاهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَناً فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ وَمَا رَأَاهُ الْمُسْلِمُونَ سَيِّئاً فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ »^(٦)

قوله تعالى ﴿ سَيَصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاءوا فإنه سيصيبه يوم القيامة بين

(٤) أخرجه البخارى فى المناقب (٢٣)

(٥) أخرجه الترمذى فى المناقب (١) .

(٦) أخرجه الإمام أحمد فى (١ : ٣٧٩) .

(٧) والإمام أحمد فى (٤ : ١٠٧) .

(١) الآية ٤١ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ١٠ من سورة الأنعام .

(٣) أخرجه مسلم فى الفضائل (١) . والترمذى فى المناقب (١) . والإمام أحمد فى (٤ : ١٠٧) .

يدى الله صغار وهو الذلة الدائمة كما أنهم استكبروا فأعقبهم ذلك ذلاً يوم القيامة لما استكبروا في الدنيا. كقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾^(١) أى صاغرين ذليلين حقيرين .

وقوله تعالى ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ لما كان المكر غالباً إنما يكون خفياً وهو التلطف في التحيل والخديعة قبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاء. وفاقاً ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٢) كما قال تعالى ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾^(٣) أى تظهر المستندات والمكنونات والضمائر وجاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لُؤَاءٌ عِنْدَ إِسْتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ»^(٤) والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل .

أمارة الهداية وعلامة الضلال

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ * لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشُرُ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

المفردات : ﴿يشرح صدره﴾ : يقال شرح الله صدره فانشرح أى وسعه لقبول الإيمان والخير وقيل الشرح الفتح والبيان وقيل هو نور يقذفه الله تعالى في القلب ﴿ضييقاً﴾ : ضد الواسع ﴿حرجاً﴾ : هو أضيق الضيق ﴿الرجس﴾ : العذاب وقيل الشيطان ﴿دار السلام﴾ : دار السلامة وهى الجنة .

(١) الآية ٦٠ من سورة غافر .

(٢) الآية ٤٩ من سورة الكهف .

(٣) الآية ٩ من سورة الطارق .

(٤) أخرجه البخارى في الجزية (٢٢) وفي الأدب (٩٩) وفي الحيل (٩) وفي الفتن (٢١) . وأخرجه مسلم في الجهاد (٨ ، ١٠ ، ١٧) .

وأبو داود في الجهاد (١٥٠) . والترمذى في السير (٢٨) وفي الفتن (٢٦) . وابن ماجه في الجهاد (٤٢) والدارمى في البيوع (١١) .

والإمام أحمد في (١ : ٤١١ ، ٤١٧ ، ٤٤١) وفي (٢ : ١٦ ، ٢٩ ، ٤٨) وفي (٣ : ٧ ، ١٩ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٦١) .

قال تعالى ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ أي يسره له وينشطه ويسهله لذلك فهذه علامات على الخير كقوله تعالى ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾^(١) وقال تعالى ﴿ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون﴾^(٢). وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ يقول تعالى يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به

وعن أبي جعفر رضي الله عنه قال سئل رسول الله ﷺ أي المؤمنين أكيس ؟ قال « أكثرهم ذكراً للموت وأكثرهم لما بعده استعداداً »^(٣).

قال وسئل النبي ﷺ عن هذه الآية ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ قالوا كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال : « نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح » قالوا فهل لذلك من أمانة يعرف بها ؟ قال « الإجابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت »^(٤).

قوله تعالى ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾

قال الشيخ المراغي : فمن كان أهلاً بإرادة الله وتقديره لقبول دعوة الإسلام الذي هو دين الفطرة والهادي إلى طريق الحق والرشاد وجد لذلك في نفسه انشراحاً واتساعاً بما يشعر به قلبه من السرور فلا يجد مانعاً من النظر الصحيح فيما ألقى إليه فيتأمله وتظهر له عجائبه وتتضح له دلالاته فتوجه إليه إرادته ويدعن له قلبه بما يرى من ساطع النور الذي يستضيء به لبه وباهر البرهان الذي يملك نفسه .

وسئل رسول الله ﷺ عن كيف يشرح صدره يا رسول الله قال : « نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح قالوا : فهل لذلك من أمانة يعرف بها قال الإجابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت » .

قوله تعالى ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾ أي أن من فسدت فطرته بالشرك وتدنست نفسه بالآثام والذنوب يجد في نفسه وصدره ضيقاً أي ضيق إذا طلب إليه التأمل فيما يدعى له من دلائل التوحيد والنظر في الآفاق والأنفس لما استحوذ على قلبه من باطل التقاليد والاستكبار عن مخالفة ما ألفه وسار عليه الناس وتضعف إرادته عن ترك ما هو عليه فتكون إجابته الداعي إلى الدين الجديد ثقيلة عليه ويشعر بالعجز عن احتمالها ويكون مثله من صعد في الطبقات العليا في السماء إذ يشعر بضيق شديد في التنفس وكلما صعد في الجوا أكثر شعر بضيق أشد حتى إذا ما ارتفع إلى أعلى من ذلك شعر بتخلخل الهواء سبيلاً إلى البقاء فإن هو قد بقي منها مات اختناقاً .

(٣) أخرجه ابن ماجة في الزهد (٣١) . والدارمي في المقدمة (٥٦) .

(٤) أخرجه ابن ماجة في الزهد (٣١) .

(١) الآية ٢٢ من سورة الزمر .

(٢) الآية ٧ من سورة الحجرات .

وخلاصة ذلك أن الله ضرب مثلاً لضيق النفس المعنوى يجده من دعى إلى الحق وقد أُنْف الباطل وركن إليه بضيق التنفس الذى يجده من صعد بطائرة إلى الطبقات العليا من الجو حتى لقد يشعر بأنه أشرف على الهلاك وهو لا نحالة هالك إن لم يتدارك نفسه وينزل من هذا الجو إلى طبقات أسفل .

سبحانك ربى نطق كتابك الكريم بقضية لم يتفهم سرها البشر ولم يفقه معرفة كنهها إلا بعد أن مر على نزولها نحو أربعة عشر قرناً وتقدم فن الطيران الآن علم انطيارين بالتجربة صدق ما جاء فى كتابك ودل على صحة ما ثبت فى علم الطبيعة من اختلاف الضغط الجوى فى مختلف طبقات الهواء وقد علم الآن أن الطبقات العليا أقل كثافة فى الهواء من الطبقات السفلى وأنه كلما صعد الانسان إلى طبقة أعلى شعر بالحاجة إلى الهواء وبضيق فى التنفس نتيجة لقلة الهواء الذى يحتاج إليه حتى لقد يحتاجون أحياناً إلى استعمال جهاز التنفس ليساعدهم على السير فى تلك الطبقات وهذه الآيات وأمثالها لم يستطع العلماء أن يفسروها تفسيراً جليلاً لأنهم لم يهتدوا لسرها وجاء الكشف الحديث وتقدم العلوم فأمكن شرح مغزاها وبيان المراد منها بحسب ما أثبتته العلم ومن هذا صح قولهم الدين والعلم صنوان لا عدوان وهكذا كلما تقدم العلم أرشد إلى إيضاح قضايا خفى أمرها على المتقدمين من العلماء والمفسرين .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

أى مثل ذلك الضيق والخرج فى صدور أهل الضلال نجعل الرجس والعذاب على الذين لا يؤمنون بالله رباً ، ولا الإسلام ديناً ولا محمد ﷺ نبياً ورسولاً ، وما ظلمناهم ولكنه كانوا هم الظالمين ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) .

وقال جلت حكمته : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٢) وقال عز وجل : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرَهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنِيَرَهُ لِلْعُسْرَى ﴾ (٣) .

هذه سنة الله التى لا تختلف ولا تتخلف على مر الأعصار . واختلاف الأمصار . ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (٤) ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ (٥) ﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ (٦) لا ترى فيه عوجاً ولا أمثاً . ولا تعرجاً ولا التواء ، ولا شذوذاً ولا نشازاً ولا انحرافاً . إذ المستقيم أقرب صلة بين نقطتين . وهذا هو صراط الله .

ولقد علمنا الله كيف ندعوه فى سورة الفاتحة التى نقرأها كل يوم سبع عشرة مرة على الأقل فى صلواتنا ، فنقول : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٧) وقال تعالى : ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٨) وجل جلال الحق إذ يقول : ﴿ قَدْ

(١) الآية ٥ من سورة الصف .

(٢) الآية ٤٣ من سورة فاطر .

(٧) الآية ٦ من سورة الفاتحة .

(٢) الآية ١٧ من سورة فصلت .

(٥) الآية ٣٨ من سورة الأحزاب .

(٨) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .

(٣) الآيات ٥ - ١٠ من سورة الليل .

(٦) الآية ١٢٦ من سورة الأنعام .

فصلنا الآيات لقوم يذكرون ﴿١﴾ .

إن الذين اتبعوا هذا الصراط المستقيم قد اتبعوا هدى الله ، فوعدهم الله تعالى بوعدين : ألا يضلوا ولا يشقوا . قال تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ (٢) .

وهؤلاء لهم دار السلام عند ربهم والسلام ، اسم جليل وجميل يملأ النفس طمأنينة وسكينة ، وللکلمة رنين طالما اهتزت له أعواد المنابر ، ووصل إلى أعماق القلوب ، أليس السلام اسماً من أسماء الله عز وجل : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام ﴾ (٣) .

أليس اسماً من أسماء الجنة ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ (٤) ثم أليس السلام تحية الله إلى حبيبه ومصطفاه : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، أليس السلام تحية الإسلام : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أليس السلام تحية الملائكة لأهل الجنة : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ (٥) لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴿ (٦) .

والولاية هنا ولاية نصره ومحبة ، ومن كان الله وليه لا يخيب سعيه ، ولا يضل سؤله ، ولا تتعثر قدمه ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ (٧) وما سعى الولى ولياً إلا لأن الله يتولاه بالحفظ والعناية :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴿ (٨) .

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وامدد يدك بجبل الله معتصماً فإنه الركن إن خانتك أركان

قوله تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ﴾ .

هذا مشهد من مشاهد القيامة ، يذكرنا الله تعالى به حتى نكون على حذر من أتباع الشياطين ، وكما علمنا أن القرآن قد أنزله الله مثافى ، فقد قرن الوعد بالوعيد ، وبين نور الوعد ونيران الوعيد ، تكون حال المؤمن بين الرجاء والخوف .

(٥) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الرعد .

(٦) الآية ٢٧ من سورة الأنعام .

(٧) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة .

(٨) الآيات ٦٢ - ٦٤ من سورة يونس .

(١) الآية ١٢٦ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ١٢٣ من سورة طه .

(٣) الآية ٢٣ من سورة الحشر .

(٤) الآية ٢٥ من سورة يونس .

فبعدما حدثنا القرآن الكريم عن أنعمه تعالى على عباده المؤمنين ، وما أعد لهم من دار السلام ، وما أحاطهم به من ولاية ورعاية بعد ذلك ، عرض علينا مشهداً من مشاهد أهل النار فقال ﴿ **وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعاً** ﴾ أى اذكر أيها المخاطب هذه الصورة التى تمثلت أمامك ، إنها توحى إليك بجماعة كثيرة جمعت بين الإنس والجن ، وقد وجه الله تعالى إلى الجن هذا الخطاب : ﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ** ﴾ أى أكثرتم من إغوائهم وإضلالهم وذلك كما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنَى آدَمَ ألا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ** ﴾ ^(١) .

وطرق الإغواء كثيرة متنوعة ، وشعب الضلال مختلفة ملتوية ، ومن ثم فقد جاءت الظلمات بصيغة الجمع لكثرتها ، وجاء النور بصيغة الأفراد لأنه الحق ، والحق لا يتعدد ، قال تعالى : ﴿ **وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ** ﴾ ^(٢) وقال جل شأنه : ﴿ **اللَّهُ وَلَى الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ ^(٣) وقال تبارك اسمه : ﴿ **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ ^(٤) .

قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَلْتَ لَنَا** ﴾ .

المراد بالاستمتاع هو انتفاع كل من الفريقين بعضهم ببعض ، فالجن استمتع بإغواء الإنس وإضلالهم ، والإنس استمتع بما أوقعه الجن فيه من الملذات ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، وسيراً التابع والمتبوع كل من عمل الآخر . قال سبحانه : ﴿ **ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّاصِرِينَ** ﴾ وقال عز وجل : ﴿ **إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ورَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ** ﴾ ^(٥) .

إن استمتاع بعضهم ببعض يبدو جلياً فى أن الجن قد أمروا ، والإنس قد عملوا ، ويوم القيامة تتجلى هذه الصورة فى ساحة الحساب : ﴿ **وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِى وَلَوْلَمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِى إِنِى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ ^(٦) .

إن شيطان الإنس قد يكون شراً من شيطان الجن ، لذا جاء مقدماً فى قوله تعالى : ﴿ **وَكذلكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً** ﴾ .

قال أحدهم :

(٤) الآية الأولى من سورة إبراهيم .

(٥) الآية ١٦٦ من سورة البقرة .

(٦) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم .

(١) الآيات ٦٠ - ٦٢ من سورة يس .

(٢) الآية أولى من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة .

و كنت امرأة من جند إبليس فارتقى بي الحال حتى صار إبليس من حندي
وقد أصدر الله تعالى حكمه على الثريتين فقال : ﴿ النار مشواكم خالدين فيها إلا ما شاء ﴾ وهذا
حكم صادق عادل ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفي كل نفس ما عملت وهم
لا يظنمون ﴾ (١) ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه
أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾ (٢) .

أما معنى الاستثناء في قوله تعالى ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ فأرجح الأقوال . أن الاستثناء عائد على
العصاة من أهل التوحيد ، ممن يخرجهم الله من النار بسدقة الشافعين من الملائكة والنبين والمؤمنين ،
حتى يشفعوا في أصحاب الكبائر ، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من ثم يحمل خيراً قط ، وثان يوماً
من الدهر : لا إله إلا الله ، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستقيمة عن رسول الله ﷺ ، وقال
قنادة : الله أعلم بشيائهم .

قوله تعالى : ﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾ شاءت حكمته أن يجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي
الذين أحسنوا بالحسن ، وأحاط علمه بكل شيء ، فقد علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما
سيكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون .

إن هؤلاء الذين استمتع بعضهم ببعض ، قضوا حياتهم في الإغواء والممذات ، حتى بلغوا آخر
الأجل الذي قصده في الدنيا ، فظنوا غافلين حتى أتاهم اليقين ، وأدرجوا في أكفان القدر ، فكان مثوالم
ومحل إقامتهم النار كل بلاء دون النار عاقبة

وكل نعيم دون الجنة حقير	تزود من التقوى فإنك لا تدري
إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر	فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً
وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري	وكم من عروس زينوها لزوجهما
وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر	وكم من صغار يرتجى طول عمرهم
وقد أدخلت أجسادهم في ثرى القبر	وكم من صحيح مات من غير علة
وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر	

من مشاهد القيامة

وَكَذَلِكَ نُؤَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَنْعَشِرَ أَجْنٍ وَالْإِنْسِ أَلَمَ يَأْتِكُمْ
رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا
وَعَرَّيْنَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ
مُهِلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَرَبُّكَ بِغَفْلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

المفردات : ﴿ نُوَلِّى ﴾ : من الولاية والإمارة . أو جعل بعضهم أنصاراً وأولياء لبعض . ﴿ يَقْصُونَ ﴾ : يتلونها مع التوضيح والتبيين ، وفى المصباح : قصصت الخبر قصاً ، أى حدثته على وجهه . ﴿ درجات ﴾ : مراتب من أعمالهم وجزاؤها .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾ .

قال قتادة : إنما يولى الله الناس بأعمالهم ، فال مؤمن ولى المؤمن أين كان ، وحيث كان ، والكافر ولى الكافر أينما كان ، وحيثما كان ، ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى . واختاره ابن جرير .

وقال معمر : عن قتادة فى تفسير الآية : يولى الله بعض الظالمين بعضاً فى النار ، يتبع بعضهم بعضاً .

وقال مالك بن دينار : قرأت فى الزبور (أنى أنتقم من المنافقين بالمنافقين جميعاً) وذلك فى كتاب الله قوله تعالى ﴿ وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً ﴾ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً ﴾ قال : ظالمى الجن ، وظالمى الإنس ، وقرأ : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ ^(١) قال : ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس . قال صلى الله عليه وسلم : « من أعان ظالماً سلطه الله عليه » ^(٢) .

ومعنى الآية الكريمة كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التى أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعض ببعض ، جزاء على ظلمهم وبغيهم .

قال تعالى : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ . وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسرة ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ^(٣) .

قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقوبات ﴾ . معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ .

وهذا مشهد آخر من مشاهد القيامة ، يوجه الله تعالى فيه السؤال إلى الجن والإنس ، ليقطع عليهم المأذير لئلا يكونوا على الله حجة بعد الرسل : ﴿ ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ﴾ أى يتلونها ويفصلونها تفصيلاً ، وهذا هو منطق العدالة الإلهية . قال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ . وقال صلى الله عليه وسلم : وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير . إذا ألقوا فيها سمعوا لها

(١) الآية رقم ٣٦ من سورة الزخرف .

(٢) الآيتان ٦٧ ، ٦٨ من سورة التوبة .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى الأحكام (٦) .

شهيقاً وهي تفور • تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير • قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴿١﴾

ولقد أرسل النبي ﷺ إلى الجن والإنس . وقد استمع الجن إلى القرآن من خاتم الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليه ، قال تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويمحرم من عذاب أليم ﴾ (٢) .

إذاً فقد أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب ، وبلغ الرسالات ، وزودنا بالعقول والأفهام ، فلا حجة محتج ، ولا عذر لمعتذر .

فكان جوابهم ﴿ بلى شهدنا على أنفسنا ﴾ وهذا في نفس الوقت إقرار وشهادة ، فالإقرار حجة قاصرة على المقر ، وهو في نفس الوقت يشهد على غيره ، كما أن غيره بإقراره شاهد عليه ، قال تعالى : ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ (٣) إذاً فالنار مثواهم : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين • قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ (٤) .

قوله تعالى ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾ .

اقتضت عدالته جل جلاله أنه لن يهلك أهل الطغيان والبغي إلا بعد أن ينذرهم ، فيفيقوا من غفوتهم ، ويستيقظوا من سباتهم ، وينتبهوا من غفلتهم ، هذا منطق عدالته جل جلاله ، إنه لا يعجل كعجلة أحدنا ، بل إنه يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، قال تعالى ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ (٥) .

وهو القائل في الحديث القدسي الجليل : [يا عبادي لقد حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا] (٦) .

ولما أهلك الله الطغاة ، ودمر الجبابرة ، وحطم القياصرة ، وهدم الأكاسرة ، قال : ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليهم حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٧) .

(١) الآيات ٦ - ٩ من سورة الملك .

(٢) الآيتان ٣٠ - ٣١ من سورة الأحقاف .

(٣) الآية ١٣٠ من سورة الأنعام .

(٤) الآيتان ٧١ ، ٧٢ من سورة الزمر .

(٥) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٦) أخرجه مسلم في البر (٥٥) . والإمام أحمد في (٥ : ١٦٠) .

(٧) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .

وقال جل جلاله : ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر * كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾^(١).
وهكذا اقتضت عدالة الله أن ينذر ويحذر ، فإذا كذب بها أهل البغي حق عليهم القول ، فدمرهم الله تدميراً ، قال تعالى : ﴿ ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾^(٢) .
وقال سبحانه : ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾^(٣) .

والله جل في علاه قد استحال في حقه الظلم ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾^(٤) .

وهذا منطق العدالة الإلهية : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾^(٥) فلن يهلك الله القرى إلا إذا أتت من الجرائم والمخالفات والاستكبار عن طاعة الله ، وعصيان الرسل ، ما يستحق إيقاع الهلاك بهم ، ولن يهلكها الله بظلم ، فحاشاه أن يظلم ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾^(٦) .

قوله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ .

وهذا تأكيد لمنطق العدل الإلهي ، فلكل من الفريقين الطائعين والعاصين منازل ينزلون بها ، فأهل الجنة في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وأهل المعاصي في نار الجحيم .

وهذا المعنى قرره القرآن الكريم في كثير من مواضعه ، قال تعالى : ﴿ إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً ﴾^(٧) وقال سبحانه : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا ننزع أجر من أحسن عملاً * أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفعاً ﴾^(٨) .

قوله تعالى : ﴿ وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ .

وهذا إخبار منه جل في علاه بأنه لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد ، قال تعالى : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾^(٩) وقال سبحانه : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾^(١٠) وقال عز من قائل : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾^(١١) وقال جلّت حكمته : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد ﴾^(١٢) ألم تر أن الله يعلم

(١) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة القمر . (٥) الآية ١٣٤ من سورة طه . (٩) الآية ٤٩ من سورة الكهف .
(٢) الآيتان ٥٤ ، ٥٥ من سورة القمر . (٦) الآية ٤٤ من سورة يونس . (١٠) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٢٣ من سورة القمر . (٧) الآية ٢٩ من سورة الكهف . (١١) الآية ٢٩ من سورة الجاثية .
(٤) الآية ٤٠ من سورة النساء . (٨) الآيتان ٣٠ ، ٣١ من سورة الكهف .

ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴿١﴾ .

وعيد وتهديد

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ ۖ كَمَا أَنْشَأَ كُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنْ مَا تُوْعَدُونَ لَأَتِيَنَّكُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنْ أَعْمَلُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾

المفردات : ﴿ يذهبكم ﴾ : يهلككم . ﴿ من ذرية ﴾ : من نسل قوم آخرين . ﴿ مكانتكم ﴾ : حالكم التي أنتم عليها .

وربك الغنى عن خلقه وعن عبادتهم ، والكل فقير إلى رحمته وعفوه ﴿١﴾ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ﴿٢﴾ وهو ذو الرحمة بأوليائه وأهل طاعته ، رحمته وسعت كل شيء ، إذ كل ما عاداه محتاج إليه في وجوده وبقائه ، ومحتاج إلى الأسباب التي جعلها الله قوام وجوده وحياته .

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ وَيَأْتِ بَخَلْقٍ غَيْرِكُمْ أَفْضَلُ مِنْكُمْ وَأَطْوَعُ ، وَإِنْ يَشَأْ يُسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مِنْ بَشَاءٍ مِنَ الْأَقْوَامِ ، فَإِنَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْقَادِرُ عَلَى إِهْلَاكِكُمْ وَإِنْشَاءِ قَوْمٍ آخَرِينَ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ ، أَوْ ذُرِّيَّةٍ غَيْرِكُمْ ، يَكُونُونَ أَسْمَى مِنْكُمْ رُوحاً ، وَأَصْفَى مِنْكُمْ نَفْساً ، وَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، فَأَذْهَبَ الْمُسْتَكْبِرِينَ الْمَعَانِدِينَ الْجَاهِلِينَ مِنَ زُعَمَاءِ الشَّرِكِ ، وَاسْتَخْلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْماً آخَرِينَ هُمُ الصَّحَابَةُ وَالسَّابِقُونَ مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ ، وَبَعْدَ هَذَا الْإِنْذَارِ فِي الدُّنْيَا ، إِنْذَارٌ فِي الْآخِرَةِ ، وَهُوَ إِنَّمَا تُوْعَدُونَ مِنْ جَزَاءِ وَثَوَابِ آتٍ لَا شَكَّ فِيهِ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ لِلَّهِ يَهْرَبُ وَلَا مَنَعَ .

﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ .

قل لهم يا محمد : يا قوم اعملوا على مكانتكم وطريقتكم التي أنتم عليها ، إني عامل على طريقتي ومكانتي التي هداني إليها ربي ، ورباني عليها ، ولسوف تعلمون من تكون له العاقبة الحسنى والنهاية العظمى . قال الزمخشري في تفسيره (الكشاف) : اعملوا على مكانتكم تحتل وجهين ، اعملوا على تمكينكم ، وأقصى استطاعتكم ، وإمكانكم أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها ، والمراد اثبتوا على كفركم وعداوتكم ، فإني ثابت على الإسلام ، فسوف تعلمون الذي تكون له العقبى يوم القيامة ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿٣﴾ .

(٣) الآية ٢٤ من سورة سبأ .

(١) الآية ٧ من سورة المجادلة .

(٢) الآية ١٥ من سورة فاطر .

وهذا إنذار لطيف المسلك . دقيق المأخذ ، مع التوجه إلى النظر والفكر وحسن الأدب وبيان السبب في الحكم للنبي ﷺ إذ لا يفلح الظالمون بالكفر .

صورة من جاهلية العرب

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمٌ وَحَرْثٌ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّمَّنْ فِيهِمْ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفِهِمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

المفردات : ﴿ ذَرَأَ ﴾ : أى خلق وأبدع . ﴿ لِيَرُدُّوهُمْ ﴾ : ليهنكوهم بالإغواء . ﴿ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ : يخلطوا عليهم دينهم . ﴿ حَجَرٌ ﴾ : الحجر أصله المنع ومنه سمي العقل حجراً لمنعه صاحبه والمراد الحرام . ﴿ وَصَفِهِمْ ﴾ : أى جزاء وصفهم .

أثر من آثار وسوسة الشيطان للإنسان ، وعمل من أعمال إبليس ، وصورة من صور الجاهلية الجهلاء ، التى كانت عليها العرب قبل الإسلام .

وجعلوا لله مما خلق من الحرث والأنعام نصيباً مفروضاً ، وقدرًا محدوداً ، وجعلوا كذلك نصيباً من أشركوهم مع الله من الأوثان والأصنام ، فقالوا هذا لله بزعمهم وتقوهم الذى لا بينة عليه ، ولا حجة فيه ، وهذا لشركائنا ومعبوداتنا نتقرب به إليها . والمروى أنهم كانوا يجعلون فى ما لهم نصيباً لله ينفقونه لإطعام الفقراء والمساكين وإكرام الضيفان والصبيان ، ونصيباً للآلهة يعطى لسدنتهم وخدمتهم ، وما ينفق على معابدهم ، وما كان لشركائهم خاصة لا يصرف إلى الوجوه التى جعلوها لله ، بل يجعلونه للسدنة وخدمة الأصنام والأوثان ، وما كان لله فهو واصل إلى شركائهم ، ألا ساء الحكم حكمهم ، وبئس ما يصنعون ؟

إذ هم اعتدوا على الله بالتشريع الفاسد وأشركوا به غيره ، وفضلوه عليه . والحال أن الله هو الذى خلق كل شيء ، وما عملوه لاسند له من عقل أو شرع ، أليست هذه جاهلية جهلاء ، وضلالة عمياء ؟ ومثل ذلك التزيين لقسمة القرابين من الحرث والأنعام بين الله والآلهة زين لكثير من المشركين شركاؤهم قتل أولادهم ، وكان مظهر التزيين أنهم خوفوهم الفقر فى الحاضر والمستقبل . ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾^(١) وخوفهم ، فقتلوا البنات خوف العار والفقر والزواج من غير الكفء .

وثالثة الأثافي أنهم كانوا يمينونهم بأن قتلهم أولادهم قرى إلى الآلهة ، كما فعل عبد المطلب حين نذر قتل ابنه عبد الله .

وقد سمي الله المتزينين لهم من شياطين الإنس كالسدنة ، أو شياطين الجن سماهم الله شركاء ، لأنهم أطاعوهم طاعة فى التبجيل والاحترام ، كما فعل أهل الكتاب مع رجال الدين ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾^(٢) زين لهؤلاء قتل الأولاد ليردوا المشركين ويهلكوهم بالإغواء ، وليخلطوا عليهم أمر دينهم الذى يدعونه ، وهو دين إسماعيل وملة إبراهيم . والواقع أنه ليس فيه شيء من هذا ، ولو شاء الله ما فعلوا هذا أبدا ، ولكن مشيئة الله للناس جميعا أن يكونوا واختيارهم ما جبلوا عليه من اختيار أى الطريقين بدون جبر ولا قهر .

أما أنت يا رسول الله ، فذرهم ولا يهمنك أمرهم ، ودعهم وما يفترون فى حقلك وحقنا ، فعلى الله حسابهم .

ثم ذكر صورة ثالثة من صور الجاهلية ، المشوهة .

أنهم قسموا أموالهم وأقواتهم إلى ثلاثة أقسام :

- (أ) فتارة أنعام وأقوات تكون محبوسة على معبوداتهم وأوثانهم ويقولون هى محبوسة للآلهة ، لا يطعمها إلا من تشاء من رجال ونساء ، وقولهم هذا بزعمهم وادعائهم الخالى من الحجة والبرهان .
- (ب) أنعام حرمت ظهورها ، فلا تتركب ولا يحمل عليها ، وهى البحيرة والسائبة والحمى .
- (ج) أنعام لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح ، بل يهلون بآلهتهم وحدها عند الذبح .

وقد قسموا هذا التقسيم مفترين على الله ، كاذبين عليه ، والله من ذلك برىء ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل الله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾^(٣) والله سيجزيهم الجزاء الذى يستحقونه بما كانوا يفترون .

﴿ وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة للذكورنا ﴾ والمراد بها البحائر المشقوقة الآذان والسوائب ، خالص خلوصاً مبالغاً فيه لذكورنا فقط ، ومحرم على نسائنا وكانت السوائب إذا ولدت

(١) الآية ٣١ من سورة الإسراء . (٢) الآية ٣١ من سورة التوبة . (٣) الآية ٥٩ من سورة يونس .

ذكرا ، جعلوها للذكور خاصة ، وإذا ولدت أنثى جعلت للتاج ، وإن كان في بطنها ميتا جعل شركة بين الذكر والأنثى ، سيجزيهم الله جزاء وصفهم إنه حكيم عليم .

ولقد نعى الله سبحانه وتعالى على مشركى العرب أمرين عظيمين ، هما قتل الأولاد ، وواد البنات ، وتحريم ما رزقهم الله من الطيبات ، وحكم عليهم بالخسران والسفه ، وعدم العلم والافتراء على الله ، والضلال وعدم الاهتداء ، إذ كيف تقتل ابنك خشية الفقر أو العار وتحرم طيبات أحلت لك ؟

فأما الخسران فالولد نعمة من الله وزينة في الدنيا ، فإذا سعى لإزالتها استحق الغضب من الله لاعتدائه ، وقال الناس : إنه قتل ابنه خوف أن يأكل طعامه ، وخسر عاطفة الأبوة التى هى مصدر الرحمة والحنان ، وجعلها مصدر الاعتداء والفناء ، وأما السفه فهل هناك سفه أكثر من قتله ابنه وفلذة كبده خوف الفقر أو خوف العار ؟ وربما كان الولد مصدر الخير لأهله ، وهل من يفعل هذا لا يعد في مصاف الجهلاء ؟ أعوذ بالله من عادات الجاهلية .

وأما الافتراء على الله والكذب عليه ، فقد جعلوه ديناً وهم كاذبون ، وأما ضلالهم فهم لم يرشدوا إلى خير أصلاً لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ولم يسيروا وراء عقل ولا شرع أخرج البخارى (إذا شرك أن تعلم جهل العرب فاقراً ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام) ﴿ قد خسر الدين قتلوا أولادهم ﴾ ... إلى قوله تعالى .. ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ .

من مظاهر قدرة الله ونعمه مع الرد على المشركين

* وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ كُلٌّ مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمَنْ أَلَّا نَعْمَ حَمُولَةً وَفَرَشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَنِيَّةٌ أَزْوَاجٌ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذَاكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْإِثْنَيْنِ أَمْ أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِثْنَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذَاكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمْ الْإِثْنَيْنِ أَمْ أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِثْنَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهِذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾

المفردات : ﴿ أنشأ ﴾ : خلق وأوجد بالتدريج . ﴿ جنات ﴾ : بسايتين

الكروم والأشجار الملتفة الأغصان ؟ سميت كذلك لأنها تجن الأرض أى تسترها . ﴿ معروشات ﴾ : محمولات على العرائش والدعائم التى يوضع عليها كالسقف مثلاً . ﴿ حولة ﴾ : ما أطاق الحمل والعمل من الإبل والبقر وغيرها . ﴿ وفرشاً ﴾ : ما يفرش للذبح من الضأن والمعز وصغار الإبل وغيرها ، أو ما يتخذ صوفه للفرش . ﴿ حصاده ﴾ : قطافه . ﴿ الضأن ﴾ : ذوات الصوف من الغنم . ﴿ المعز ﴾ : وهى ذوات الأشعار والأذنان القصار من الغنم .

المناسبة

لما افترى الكفار على الله الكذب ، وأحلوا وحرموا ، وأشركوا معه غيره ، دلهم على وحدانيته تعالى ، ومظاهر قدرته وأنه مصدر التشريع والتحريم لأنه تعالى هو الخالق وحده ، المبدع لهذه الكائنات وصاحب هذه النعم الجليلة .

وربكم القادر الرحيم بكم الرحمن ، هو الذى أنشأ تلك الجنات وأبدع هذه البساتين سواء منها المعروش القائم على العمود والسقف كبستان العنب ، وغير المعروش كبقية الفواكه والأشجار ، حتى العنب نفسه فيه المعروش وغير المعروش ، وأنشأ النخل ، وخص بالذكر لكثرتة عند العرب وشيوعه فى بلادهم ، وانتفاعهم بكل ما فيه حتى ضربوه مثلاً للمؤمن ينتفع بكل أجزائه ، وأنشأ الزرع الشامل لكل ما يزرع ويحترث مما هو أساس القوت وغيره ، كالقمح والشعير وغيرها ، وهذا النخل والزرع مع أنه يسقى بماء واحد ، وفى تربة واحدة ، ومتشابهة فى المنظر العام ، إلا أنه يختلف فى الأكل فهذا الجيد ، وذلك المتوسط أو الرديء وهذا الحلو، وذاك المر الخ ...

فسبحانك يارب أنت القادر الحكيم .

وأنشأ الزيتون والرمان متشابهاً فى المنظر العام ، وغير متشابهة فى الطعم والأكل يا سبحان الله هذه التغيرات خلقت بطبعها أم لا بد لها من مغير ؟ وهل هو الله سبحانه أم غيره من الشركاء والأصنام ؟ أليس هو الله الرحمن الرحيم ؟ ولو شاء لخلقنا ولم ينعم علينا بغذاء جميل المنظر لذيذ الطعم سهل التناول .

أليس هذا من مظاهر القدرة الكاملة ، والحكمة التامة ، والوحدانية الشاملة ، للذات والصفات ، فهذا الماء ذو الكثافة من رفعه فى العود الأخضر إلى أعلى ؟ حتى انتهى إلى ورق أخضر ، ولون أزهر ، وجنى جديد ، وطعم لذيذ ، وشكل جميل ، وهذا غذاء النحل يصير عسلاً ، وغذاء الضبى بصير مسكاً ، وغذاء الحيوان يصير روثاً !

أين من يقولون خلق الكون بالضح ؟ أين من يكفرون بالرحمن ؟ أين من يعصون الله فى أرضه وتحت سمائه ؟

كلوا أيها الناس من ثمر هذا الزرع والجنات إذا أثمر ، واشكروا نعمه عليكم ، بأن تأتوا حقه الذى

فرض عليكم يوم حصاده وقطفه ، قبل أن تشح به نفوسكم ، ففيه حق معلوم لنسائل وانحروم ، وهذه هي الزكاة المطلقة التي وجبت في صدر الإسلام ، ثم كانت الزكاة المقيدة المحددة الراجعة في الآيات المدنية .

ولا تسرفوا فالإسراف خطأ مطلقاً ولو في الشيء الحلال ، ولا تسرفوا في الأكل ، ولا تسرفوا في التصرف ، وقد قيل : لا سرف في الخير ، ولا خير في السرف ، والرأى هو التوسط في كل شيء .
رأشاً من الأنعام كباراً تصلح للحمل والعمل ، وصغاراً كالفصلان والغنم والمعز مثلاً ، تفرش على الأرض لسيح ، ويتخذ من شعرها ووبرها فرشاً ولباساً .

وكنوا بما رزقكم الله . وانتفعوا بلحمها ولبنها ووبرها وشعرها ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان فتحرّموا ما أحل الله . أو تحموا ما حرم الله ، فإن الشيطان عدوكم الظاهر : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وهذه الأنعام ثمانية أزواج : فهي إبل وبقر وغنم ومعز ، وكل منها ذكر وأنثى ، وقد أنشأ الله من الضأن اثنين الكبش والنعجة ، ومن المعز اثنين التيس والعنزة ، ومن الإبل اثنين الجمل والناقة ، ومن البقر اثنين الثور والبقرة .

قل هم أيها الرسول تبكيثاً وتوبيخاً : أحرم الله الذكرين من الكبش والتيس؟ أم حرم الأنثيين من النعجة والعنزة نبئوني بعلم إن كنتم صادقين؟ أم حرم الذكرين من الجمل والثور أم حرم الأنثيين من الناقة والبقرة ؟ أم حرم الله ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ .

وقد كان المشركون في الجاهلية يحرمون بعض الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى ، ما احتج الله سبحانه وتعالى عليهم بأن لكل من الضأن والمعز والإبل والبقر ذكر أو أنثى ، فإن كان قد حرم منها الذكر وجب أن يكون كل ذكورها حراماً ، وإن كان حرم جل شأنه الأنثى وجب أن يكون كل إناثها حراماً ، وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، وجب تحريم الأولاد كلها .

والله تعالى ما حرم عليهم شيئاً من هذه الأنواع ، وإنهم لكاذبون في دعوى التحريم ، وقد فصل الله ذلك أتم تفصيل ، مبالغة في الرد عليهم ثم زاد في الإنكار فقال : بل أكنتم حضوراً أو قد وصاكم الله بهذا ؟ أى أعندكم علم يؤثر عن الإنكار من رسله ؟ أم شاهدتم ربكم فوصاكم بهذا التحريم مشافهة بغير واسطة ؟ كلا ما حصل هذا ولا ذاك ، وإنما أنتم تفترون على الله الكذب ، وتقولون هذا حلال وهذا حرام وتقولون على الله ما لا تعلمون .

وبعد أن نفى طريقى العلم ، وهو التلقى من الرسل أو من الله . أثبت أنه لا أحد أظلم ممن ثبت أنه

افتري على الله الكذب ليضل الناس بغير علم ، أما جزاؤكم فإن الله لا يهدي القوم الظالمين ، ولا يوفقهم إلى الرشاد وإلى الهدى والخير أصلاً .

المحرمات

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

المفردات : ﴿ محرمًا ﴾ : محظورا أو ممنوعا . ﴿ طاعم يطعمه ﴾ : آكل يأكله . ﴿ مسفوحاً ﴾ : مصبوبا سائلا يجري من المذبوح . ﴿ رجس ﴾ : قدر قبيح . ﴿ شحومها ﴾ : المراد الشحم الرقيق الذى يكون على الكرش . وكذا الشحم الذى يكون على الكلية . ﴿ الحوايا ﴾ : مجتمع الأمعاء فى البطن . ﴿ بأسه ﴾ : عذابه .

بعد أن ذكر سبحانه فى سابق الآيات أنه ليس لأحد أن يحرم شيئاً من الطعام ولا غيره إلا بوحي من ربه على لسان رسله ، ومن فعل ذلك يكون مفترياً على الله معتدياً على مقام الربوبية ، ومن أتبعه فى ذلك فقد اتخذ شريكاً لله تعالى ، وأبان من هذا الافتراء ما حرّمته العرب فى جاهليتها من الأنعام والحارث قفى على ذلك بذكر ما حرّمه على عباده من الطعام على لسان خاتم رسله ، وألسنة بعض الرسل قبله . أخرج عبد بن حميد عن طاووس قال : إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء ويستحلون أشياء فنزلت ﴿ قل لا أجد فى ما أوحى إلى محرمًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قل لا أجد فى ما أوحى إلى محرمًا على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ﴾ .

أى قل أيها الرسول ، لهؤلاء المفترين على الله الكذب فيما يضرهم من تحريم ما لم يحرم عليهم ، وقل لغيرهم من الناس لا أجد فيما أوحاه إلى ربي طعاماً محرماً على آكل يريد أن يأكله إلا أن يكون ميتة لم يُذَكَّ ذكاة شرعية وذلك شامل لما مات حتف أنفه ، وللمنخنقة والموقوذة والنطيحة ونحوها ، أو دماً مسفوحاً أى سائلاً كالدم الذى يجري من المذبوح فلا يدخل فيه الدم الجامد كالكبد والطحال وفى الحديث

« أحلت لنا ميتتان : السمك والجراد ، ودمان : الكبد والطحال »^(١) أو لحم خنزير ، فإن كل ذلك خبيث تعافه الطباع السليمة .

وهو ضار بالأبدان الصحيحة ، أو فسقاً أهل لغير الله به وهو ما يتقرب به إلى غيره تعبداً وبذكر اسمه عليه عند ذبحه . ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى فمن دفعته ضرورة الجوع وفقد الحلال إلى أكل شيء من هذه المحرمات حال كونه غير مرید لذلك ولا قاصد له ولا متجاوز حد الضرورة فإن ربك الذى لم يحرم ذلك إلا لضرره - غفور رحيم فلا يؤاخذ به بأكل ما يسد به مخمصته ويدفع عنه ضرر الهلاك .

قوله تعالى ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ﴾ أى ما ليس منفرج الأصابع كالإبل والنعام والأوز والبط كما ورد ، وحرمنا عليهم من البقر والغنم دون غيرهما شحومهما الزائدة التى تنتزع بسهولة وهى ما على الكرش والكلى أما الشحوم التى على الظهر وفى الذيل فحلال بدليل قوله ﴿ إِلَّا مَا هَلَكَ مِنْ بَنَاتِنَا وَمِثْلَهُنَّ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وإلا ما حملته الأمعاء فتلخص أن المحرم عليهم من الشحوم هو شحم الكرش والكلى فقط .

وإنما حرم الله عليهم ذلك عقوبة لهم فى قتلهم الأنبياء بغير حق ، وصدهم عن سبيل الله ، وأخذهم الربا ، واستحلالهم أموال الناس بالباطل ، وفى ذكر هذا تكذيب لليهود فى قولهم إن الله لم يحرم علينا شيئاً وإنما حرمنا على أنفسنا ما حرمه إسرائيل على نفسه .

ولما كان هذا إخباراً عن شيء جرى قديماً لم يكن للنبي ﷺ ولا لأحد من قومه علم به قال وإنما لصادقون ومن أصدق من الله حديثاً ؟ فإن كذبوك بعد هذا وقالوا : إن الله رحيم واسع الرحمة كريم فكيف يحرم ما أحله ؟ قل لهم : لهم نعم ربكم ذو رحمة واسعة ، ولكن من عصى وبغى لابد من عقابه فإنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين فى حق أنفسهم ، وحق الله .

حجة داحضة

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَاسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلَمْ شَهِدَ آءُكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَايَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

(١) أخرجه ابن ماجه فى الاطعمة (٣١) .

المفردات : ﴿تحرصون﴾ : الخرص الحذر والتخمين والمراد تكذبون .
 ﴿الحجة﴾ : الدلالة المبينة للدين الحق . ﴿هلم﴾ : أى أحضروا . ﴿يعدلون﴾ : يتخذون له عدلاً مساوياً .

من حجج المشركين الباطلة قولهم ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ وقد رد عليهم مولانا تبارك وتعالى بقوله ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا﴾ لقد قطع الله المعاذير على العباد فقد أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيمًا ، وقد أنزل الله كتباً تتلى فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، وقد زود الله عباده بالعقل والكسب والاختيار ، فرفع قلم التكليف عن المجانين ، وبين الهدى من الضلال ، وميز الحق من الباطل .

﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾^(١) .

أبعد قول الله تعالى ﴿قد تبين الرشد من الغي﴾ تكون هناك حجة لكل معتد أثيم ، إن الله تعالى بين وأندر ، وقد أعذر من أندر ، وعفا وتاب على من عاد بعد معصية ، وفتح باب التوبة إلى أن تطلع الشمس من مغربها ، وتغرب في مشرقها ، ورفع التكليف عن كل خطأ ونسيان واستكراه ، وعن المجنون حتى يفيق ، والنائم حتى يستيقظ ، والصبي حتى يحتلم ، ولم يكلفنا إلا بما نستطيع ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾^(٢) ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾^(٣) ﴿فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم﴾^(٤) .

أبعد هذا البيان يقولون على الله كذباً وبهتاناً ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾ إنها حجة داحضة .

يقول الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه أن الله تعالى أراد بنا وأراد منا ، فأخفى ما أراد بنا وأظهر ما أراد منا ، فاحتججنا بما أراد بنا وتركنا ما أراد منا ، كذلك فإن مثل علم الله فينا كما قال النبي ﷺ كمثل السماء التي أظلتكم والأرض التي أقلتكم ، فكما لا يستطيعون الخروج من السماء والأرض ، كذلك لا يستطيعون الخروج من علم الله ، وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب كذا لا يحملكم علم الله ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾^(٥) .

وقال جل شأنه : ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾^(٦) . وقال تبارك اسمه :

(٤) الآية ١٦ من سورة التغابن .

(٥) الآية ٢٩ من سورة الكهف .

(٦) الآية ١٧ من سورة فصلت .

(١) الآية ٢٥٦ البقرة .

(٢) الآية ١٨٥ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٧٨ من سورة الحج .

﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾^(١) وقال عظمت حكمته ﴿ وأما من بخل واستغنى ﴾ وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى ﴿^(٢) .

وقال : ﴿ وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾ * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين * بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴿^(٣) .

وقال جلت حكمته : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾^(٤) وقال : ﴿ وهديناه النجدين ﴾^(٥) وقال : ﴿ ونفس وما سواها * فآلهما فجورها وتقواها ﴾^(٦) .

فأى حجة محتج بعد هذا البيان ، وقد رد الله تعالى في موضع آخر جاء في سورة النحل . رد على هؤلاء المفترين فقال ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا ولا حرمنا من دونه من شيء ﴾^(٧) قال تعالى رداً عليهم : ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين . ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾^(٨) .

إن هذه الحجج التي تشدقوا بها وردت في مواضع عن الكتاب العزيز مثل ﴿ لو شاء الرحمن ما عبدناهم . ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾^(٩) .

ثم بين الله تعالى أنهم مقلدون لآبائهم . جاحدون على كفرهم ، فقال : ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾^(١٠) . وفي موضع آخر يقول جلت قدرته ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾^(١١) .

وقد دحض الله أقاويلهم تلك في قوله ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ * قال أو لو جئتمكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون * فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾^(١٢) .

فإذا كان هؤلاء قد احتجوا بالمشيئة فأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وحرموا من الحرث والأنعام ما لم يحرمه الله ، وأحلوا أشياء وحرموا أخرى تبعاً لأهوائهم ، ثم احتجوا بمشيئة الله ، فإن الله

(١) الآية ٥ من سورة الصف . (٥) الآية ١٠ من سورة البلد . (٩) الآية ٢٠ من سورة الزخرف .
 (٢) الآيات ٨ - ١٠ من سورة الليل . (٦) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الشمس . (١٠) الآية ٢٢ من سورة الزخرف .
 (٣) الآيات ٥٤ - ٥٩ من سورة الزمر . (٧) الآية ٣٥ من سورة النحل . (١١) الآية ٤٧ من سورة يس .
 (٤) الآية ٣ من سورة الإنسان . (٨) الآيتان ٣٥ ، ٣٦ من سورة النحل . (١٢) الآيات ٢٣ - ٢٥ من سورة الزخرف .

تعالى قد بين وأوضح ، لذلك جاء كلامه مبنياً على التكذيب الذى كذبه آباؤهم ، والذين من قبلهم حتى ذاقوا بأس الله وعذابه ، جزاء وفاقا على عنادهم وافتراءهم .

﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ﴾ وهل تستطيعون أن تقيموا الأدلة على صدق ما تقولون . وما تزعمون ، إن تتبعون إلا الظن والتخمين والكذب ، وإن أنتم إلا تخرصون ، أما الحجة البالغة فإنها لله وحده ، فإنه يقول الحق وهو يهدى السبيل . ﴿ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾^(١) .

قوله تعالى ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ أى لفطر كم على الهداية كالملائكة المكرمين ، لكنه زودكم بالكسب والاختيار ، وسوف يجزيكم على حسن مباشرتكم للأسباب ، أو سوء مباشرتها ، لذا فعليكم أن تعملوا بما أمركم وتنتهوا عما نهاكم ، قال جل جلاله ﴿ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾^(٢) .

قوله تعالى ﴿ كل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ﴾ أى أحضروا ما عندكم من الشهود الذين يشهدون على تحريم ما حرمت من الحرث والأنعام ، فإن شهدوا فلا تشهد معهم يا محمد ، لأنك لا تشهد إلا بالحق ، لأنك الرسول الحق ، الذى تتلقى عن الله الحق ، وهؤلاء قوم يتبعون الهوى ، وهوى النفس قد أغيا كل طيب ، وأعمى كل لبيب . ﴿ ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ﴾ والذين لا يؤمنون بالآخرة ﴿ وكفى بذلك ضلالا بعيدا وطغيانا كبيرا وعتوا ونفورا . إنهم مع تكذيبهم بآيات الله واتباعهم الهوى ، يعدلون بالله آلهة أخرى ، وكفى بذلك افتراء على الله ﴾ ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴿^(٣) ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾^(٤) .

أصول الإسلام والفضائل

* قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

المفردات : ﴿ تعالوا ﴾ : أقبلوا والأصل أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عم . ﴿ أتل ﴾ : أقرأ . ﴿ إملاق ﴾ : فقر . ﴿ الفواحش ﴾ : ما عظم جرمه وذنبه كالكبائر أو الخطيئة التي بلغت الغاية في الفحش . ﴿ أشده ﴾ : كمال رجولته وتمام حنكته ومعرفته .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً - إلى قوله تعالى : لعلمكم تتقون ﴾ .

وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول : في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ثم قرأ ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ الآيات .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أيكم يبأي عنى على ثلاث » ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ حتى فرغ من الآيات « فمن وفى فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئاً فادركه الله به في الدنيا كانت عقوبة ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه »^(١) .

يقول الله تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ قل : يا محمد هؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ، وحرموا ما رزقهم الله ، وقتلوا أولادهم ، وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ تعالوا ﴾ أي هلموا وأقبلوا ﴿ أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ أي أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً ، لا تخربوا ولا ظناً ، بل وحياً منه وأمرأ من عنده ﴿ ألا تشركوا به شيئاً ﴾ وكأن في الكلام محذوفاً دل عليه السياق وتقديره وأوصاكم ﴿ ألا تشركوا به شيئاً ﴾ ولهذا قال في آخر الآية ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ .

وتقول العرب : أمرتك أن لا تقوم ، وفي الصحيحين من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ؟ وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، وإن شرب الخمر »^(٢) .

وفي بعض الروايات إن قائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ ، وأنه عليه الصلاة والسلام قال

(١) أخرجه الإمام أحمد في (٥ : ٣١٣ ، ٣٢٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٥) وفي الأحكام (٣٩) وفي الآحاد (١) وفي الشروط (٩) وفي الأيمان (٣) وفي الحدود (٣٠ ، ٣٤ ،

٣٨) وأخرجه مسلم في الحدود (٢٥) وفي القضاة (٢٢) . وأخرجه أبو داود في الحدود (٢٥) والترمذي في الحدود (٨) وابن ماجه

في الحدود (٧) والإمام مالك في الحدود (٦) والإمام أحمد في (٤ : ١١٥ ، ١١٦) .

في الثالثة « وإن رغم أنف أئى ذر » فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث : « وإن رغم أنف أئى ذر » ^(١) .

وعن أئى ذر قال : قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى : [يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى فأنى أغفر لك على ما كان منك ولا أبالى ، ولو أتيتنى بقراب الأرض خطيئة أتيته بقرابها مغفرة ما لم تشرك بى شيئاً ، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك] ^(٢) .

ولهذا شاهد فى القرآن قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ^(٣) .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود : « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » ^(٤) .

وعن رسول الله ﷺ : « لا تشركوا بالله شيئاً وإن قطعتم أو صلبتم أو حرقتم » ^(٥) .

قوله تعالى ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ أى وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانا ، أى أن تحسنوا إليهم ، كما قال تعالى ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ ^(٦) .

والله تعالى كثيرا ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين كما قاله : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير * وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ ^(٧) .

فأمر بالاحسان إليهما وإن كانا مشركين بحسبهما . وقال تعالى ﴿ وإذا أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا ﴾ ^(٨) .

عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال سألت رسول الله ﷺ : (أى العمل أفضل ؟ قال « الصلاة

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٥٤) . والبخارى فى اللباس (٢٤) .

(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات (٩٨) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٧٢) . (٣) الآية ٤٨ من سورة النساء .

(٤) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٥٠ - ١٥٣) وفى الزكاة (٣٢ ، ٣٣) . وأخرجه البخارى فى العلم (٤٩) وفى الجنائز (١) وفى التوحيد (٣٣) وفى الرقاق (١٣ ، ١٤) وفى الاستقراض (٣) وفى بدء الخلق (٦) وفى الاستئذان (٣٠) . وأخرجه الترمذى فى الإيمان (١٨) . والنسائى فى الصلاة (١) وفى الجهاد (١٨) . وابن ماجه فى الدييات (١) وفى الأدب (٥٨) وفى الزهد (٣٧) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٧٤ ، ٣٨٣ ، ٤٢٥ ، ٤٤٢) وفى (٢ : ١٧٠) وفى (٣ : ٧٩) وفى (٤ : ١٤٨ ، ١٥٢) وفى (٥ : ١٤٥ ، ١٦٢) وفى (٦ : ٢٤ ، ٤٤٧ ، ٤٥٠) .

(٥) أخرجه ابن ماجه فى الفتن (٢٣) . وللإمام أحمد (٤ : ١١) وفى (٥ : ٣٢٨) .

(٦) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الإسراء .

(٧) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة لقمان . (٨) الآية ٨٣ من سورة البقرة .

على وقتها « قلت ثم أى ؟ قال « بر الوالدين » قلت ثم أى ؟ قال « الجهاد فى سبيل الله » قال ابن مسعود حدثنى بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزدنى (١) .

عن أبى الدرداء وعن عبادة بن الصامت كل منهما يقول أوصانى خليلى رسول الله ﷺ « أطع والدك وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا فافعل » (٢) .

قوله تعالى ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾

لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد ، فقال تعالى ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ﴾ وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك ، فكانوا يعدون البنات خشية العار ، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار ، ولهذا ورد فى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ « أى الذنب أعظم » قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » قلت : ثم أى ؟ قال « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت : ثم أى ؟ قال « أن تزانى حليلة جارك » ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ (٣) .

وقوله تعالى ﴿ من إملاق ﴾ قال ابن عباس وقتادة والسدى وغيره : هو الفقر ، أى ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل :

وقال فى سورة الاسراء ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ أى لا تقتلوهم خوفاً من الفقر فى الآجل ، ولهذا قال هناك ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ فبدأ يرزقهم للاهتمام بهم ، أى لاتخافوا من فقركم بسبب رزقهم ، فهو على الله ، وأما هنا فلما كان الفقر حاصلًا قال ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ لأنه الأهم ههنا والله أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ (٤) كقوله تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ .

جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » .

وقال عبد الملك بن عمير عن وزاد عن مولاة المغيرة قال : قال سعد بن عبادة : لو رأيت مع امرأتى رجلاً لضربته بالسيف غير مصفح ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « اتعجبون من غيرة سعد ؟ فوالله

(١) أخرجه البخارى فى الأدب (١) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٢) (٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ : ٢٠ ، ١٦٤ ، ٢٠٧) .

(٣) أخرجه البخارى فى التفسير (سورة ٢ : ٣) (وسورة ٢٥ : ٢) وفى الأدب (٢٠) وفى الديات (١) وفى الحدود (١٩) وفى

التوحيد (٤٠ ، ٤٦) ، وأخرجه مسلم فى الإيمان (١٤١ ، ١٤٢) ، وأبو داود فى الطلاق (٥٠) . والترمذى فى التفسير (سورة

٢٥ : ١ ، ٢) . والنسائى فى التحريم (٤٤) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٤) .

(٤) الآية ١٥١ من سورة الأنعام .

لأننا أغير من سعد ، والله أغير منى ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن^(١)

قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ .

وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيداً ، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فقد جاء في الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »^(٢) .

قوله تعالى ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون عن الله أمره ونهيه .
قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نَكْلِفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما نزل الله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ و﴿ إِنْ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً ﴾ فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه فجعل يفضل الشئ فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾ قال : (فخلطوا طعامهم بطعامهم ، وشرابهم بشرابهم) رواه أبو داود .

وقوله تعالى ﴿ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾ أى حتى يحتلم .

قوله تعالى ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء كما تواعد على تركه في قوله تعالى :

﴿ وَيَلِ لِلْمُطَفِّينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٣) .

وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان ، قال تعالى : ﴿ وَأَخَذْتُ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ ﴾^(٤) .

(١) أخرجه البخارى في التفسير (سورة ٦ : ٧) و(سورة ٧ : ١) وفي النكاح (١٠٧) وفي التوحيد (١٥ ، ٢٠) . وأخرجه مسلم في اللعان (١٧) وفي التوبة (٣٢ - ٣٥) . والترمذى في الدعوات (٩٥) . والدارمى في النكاح (٣٧) والأمام أحمد في (١ : ١٨١ ، ٤٢٦ ، ٤٣٦) وفي (٤ : ٢٤٨) .

(٢) أخرجه البخارى في الديات (٦) . ومسلم في القسامة (٢٥ ، ٢٦) . وأبو داود في الحدود (١) . والترمذى في الحدود (١٥) . والنسائى في التحريم (٥ ، ١١ ، ١٤) . والدارمى في السير (١١) . والإمام أحمد في (١ : ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ١٦٣ ، ٣٨٢ ، ٤٤٤ ، ٤٦٥) وفي (٦ : ١٨١ ، ٢١٤) .

(٣) | الآيات ١ - ٦ من سورة المطففين . (٤) الآيات ٩٤ ، ٩٥ من سورة هود .

وقال ﷺ :

« ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان » ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ لا تكلف نفسا إلا وسعها ﴾ أى من اجتهد فى أداء الحق ، وأخذه فإن أخطأ بعد است فراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ ^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ قال ابن جرير : يقول بوصية الله التى أوصاكم بها ، فأوفوا وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم ، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله ، وذلك هو الوفاء بعهد الله ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ يقول تعالى : هذا أوصاكم به وأمركم به ، وأكد عليكم فيه ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أى تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه قبل هذا ، وقرأ بعضهم بتشديد الذال وآخرون بتخفيفها .

قوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ وفى قوله : ﴿ أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه ﴾ ^(٣) ونحو هذا فى القرآن قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة ، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات فى دين الله ، ونحو هذا قال مجاهد .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :

خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال « هذا سبيل الله مستقيما » وخط عن يمينه وشماله ثم قال « هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ثم قرأ ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ ^(٤) .

وعن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ : « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً ، ولا تفرقوا ، وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه فإنك إن فتحتة تلجه ، فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله ،

(١) أخرجه ابن ماجه فى الفتن (٢٢) .

(٢) الآية ١٣ من سورة الشورى .

(٢) الآية ١٣٥ من سورة النساء .

(٤) أخرجه البخارى فى الرقاق (٤) . وابن ماجه فى الزهد (٢٧) .

والداعى من فوق الصراط وأعظ الله فى قلب كل مسلم ،^(١) رواه الترمذى والنسائى . قوله تعالى ﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ إنما وحد سبيله ، لأن الحق واحد ، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها ، كما قال تعالى ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾^(٢) .

حجة الله على عبادة

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَن أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ بِعَايَةِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنَّا آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

المفردات : ﴿ طائفتين من قبلنا ﴾ : هم اليهود والنصارى . ﴿ دراستهم ﴾ : قراءتهم وعلمهم . ﴿ بينة ﴾ : البينة والبيان ما به يظهر الحق . ﴿ وصدف عنها ﴾ : ومنع الناس عنها .

لقد ذكر القرآن الكريم الوصايا العشر بعد ما تكلم على أسس الدين وأصوله ، ثم قفى ذلك بالحديث على القرآن وأثره ، ورد بعض شبه المعاندين ، وافتتح ذلك بالكلام على التوراة ، فهى أشبه بالقرآن من الإنجيل والزبور ، لاشتغالها على الأحكام كثيراً ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ﴾ وهو كذا وكذا الخ الوصايا العشر السابقة ، ثم أخبركم بأننا آتيناهم موسى الكتاب تماماً للنعمة والكرامة والخير والهداية على المؤمن المحسن .

نعم كان تماماً على من أحسن ، ويؤيد هذا المعنى قراءة من قرأ تماماً على الذين أحسنوا أى فى اتباعه ، والنظر فيه ، والاهتداء بهديه ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾^(٣) (آتيناهم موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن وتفصيلاً لكل شيء) من أحكام الشريعة عبادتها ومعاملتها ، وهدى لمن اهتدى به ، ورحمة لمن تمسك به فينجيه من الضلالة والبهتان ، آتيناهم موسى الكتاب بهذا الوصف ، وبهذه الحكمة ليجعل قومه محل رجاء للإيمان بالله ، وموضع الفوز فى دار الكرامة ودار السلام .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٤ : ٨٢ ، ١٨٣) والترمذى فى الأدب (٧٦) .

(٢) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة . (٣) الآية ٢٤ من سورة السجدة .

وهذا القرآن الذى تليت عليكم آياته البينات بأسلوبه العربى المعجز ، هو الكتاب لا ريب فيه ، أنزلناه كثير البركات ، عظيم الشأن ، كثير الخير فى الدين والدنيا ، قد جاء بأكثر مما جاءت به التوراة فاتبعوا ما هداكم إليه ، واتقوا ما نهاكم عنه ، فهو حبل الله المتين ونوره اليقين ، جمع طريق الفلاح فى الدنيا والآخرة ، فاعملوا به لتكون رحمة الله رحمة لكم فى حياتكم ومعادكم .

أنزلنا إليك الكتاب المرشد إلى توحيد الله والهادى إلى سبيله ، والموصل إلى تزكية النفوس وتطهيرها من أدران الشرك والفسوق والعصيان ، لئلا تقولوا يوم الحساب إنما أنزل الكتاب على اليهود والنصارى من قبلنا ، وإن كنا عن دراستهم وقراءة كتبهم وتفهمها لغافلين ، لا ندرى ما هى ، لأنها بلسان غير عربى ، ولأننا مشغولون بغيرها ولم ندع إليها . ولئلا تقولوا كذلك لو أنا أنزل علينا الكتاب الهادى إلى سواء السبيل لكننا أهدي منهم ، وأحسن حالا لصفاء نفوسنا وقوة عزائمنا وذكاء عقولنا وإرهاق إحساسنا : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ (١) .

فرد الله عليهم بقوله تبكيتاً لهم وتأنيباً : إن صدقتم فيما تقولون فقد جاءكم كتاب بين الحق ، واضح الحجج ، سديد البرهان ، تام الأصول والفروع والأحكام ، فهو البينة الفاصلة ، والحجة الكاملة ، وهو هادى لمن تدبره واتعظ به ، ورحمة عامة للناس لما فيه من الدعوة إلى المثل العليا ، زيادة عن الدعوة إلى الدين الحق ، وإذا كان الأمر كذلك فمن أظلم ممن كذب بآيات الله .

نعم لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله التى على هذا الوصف ، ومنع الناس عنها ، وعن النظر فيها ، والإيمان بها ﴿ وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ (٢) .

سنجزى الذى يمنعون الناس عن الإيمان بآياتنا العذاب السىء الشديد ، إذ هم يحملون أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم ، وبما كانوا يمنعون غيرهم من الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، واتباع هدى القرآن ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ (٣) .

تهديد وإنذار

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

المفردات : ﴿ ينتظرون ﴾ : ينتظرون .

بعد ما وصف الله القرآن وأثره ، وأندر من يكذبه بصارم العقاب ، أتبع هذا بحقيقة المشركين وما ينتظرون ، هل ينظر هؤلاء إلا أن تأتيهم الملائكة كما اقترحوا ، أو يأتي ربك كما طلبوا ، وقالوا ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾^(١) ﴿ أو تأتي بالله والملائكة قبلاً ﴾^(٢) . أو تأتيهم بعض آيات ربك التي اقترحوها بكفرهم ، وقولهم ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ﴾^(٣) ونحو ذلك .

فهم في الحقيقة لا ينتظرون نجىء الملائكة ، أو مجيء ربك ، أو مجيء بعض آيات ربك ، فهم متمادون في التكذيب ولا أمل فيهم أبداً ، ولا خير فيهم أصلاً ، وقيل : هم لا ينتظرون إلا ملائكة الموت أو أمر الله أى وعده ووعيدة هل ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون^(٤) .

﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ الآيات الدالة على قرب قيام الساعة ، أو بعض الآيات الموجبة للإيمان الاضطرارى ، لا ينفع هذا الإيمان نفساً لم تكن آمنت من قبل ، فإن الإيمان تكليف وعمل واختبار ، وليس في هذا الوقت واحد منها ، ولا ينفع هذا الإيمان نفساً آمنت من قبل ولم تعمل عملاً صالحاً ، إذ ليس الإيمان وحده كافياً في سقوط العذاب عن الشخص ، بل لابد من إيمان وعمل ، ولذلك كان القرآن دائماً يقرن الإيمان بالعمل ﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً ﴾^(٥) ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾^(٦) .

وقد ورد في الحديث أن بعض الآيات هي طلوع الشمس من المغرب ، واضطراب هذا الكون . أخرج أحمد والترمذى عن أبى هريرة : « ثلاثة إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض »^(٧) .

قل لهم يا محمد انتظروا ، وما تتوقعون من إماتة الدعوة ، وقتل الرسول ، وهلاك الدين ، إنا منتظرون أمر ربنا ووعدده الصادق لنا ، ووعيدده المتحقق لأعدائنا : ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾^(٨) .

﴿ اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون ﴾ وهذا تهديد ووعيد شديد إذ هم ينتظرون أمراً قد قضى الله فيه ، إذ أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

(١) الآية ٢١ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٩٢ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٩٢ من سورة الإسراء .

(٤) الآية ٣٣ من سورة النحل .

(٥) الآية ٨٨ من سورة الكهف .

(٦) الآية ٢٧٧ من سورة البقرة .

(٧) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٩) ، وأخرجه أحمد في (١ : ١٩٢) وفي (٢ : ١٦٤ ، ٢٠١ ، ٢٣١ ، ٢٧٥ ، ٣١٣ ، ٣٢٤ ،

(٨) (٣٩٥ ، ٤٩٥) وفي (٣ : ٣١ ، ٩٨) وفي (٤ : ٦ ، ٧ ، ٣٩٥ ، ٤٠٤) والترمذى في الفتن (٢١) وفي تفسير (سورة ٦ : ٨ ، ٩ ،

(٨) الآية ١٠٢ من سورة يونس .

(و) (سورة ٣٦ ، ٢) .

عاقبة الاختلاف وعدم الاتحاد

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

روى أبو داود والترمذى عن معاوية قال ما معناه : « قام فينا رسول الله ﷺ فقال : ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، اثنتان وسبعون فرقة في النار ، وفرقة واحدة في الجنة ، وهى الجماعة » (١) .

وعلى هذا تكون الآية الكريمة شاملة لأهل الكتاب ولغيرهم من فرق المسلمين ، وهى مسوقة للتحذير من الاختلاف ، واتباع الآراء والبدع والمتشابهات ، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على شرع أنبيائهم ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات ﴾ (٢) وقد ورد ﴿ اللهم إيماننا كإيمان العجائز ﴾ إيمان بعيد عن الشبه والخلافات الضارة .

إن الذين فرقوا دينهم ، واختلفوا فيه ، وأقروا ببعض ، وكفروا ببعض ، وأولوا نصوصه على حسب أهوائهم ونزعاتهم ، وكانوا شيعاً ، كل شيعه تدين برأى إمامهم ، وتتعصب له ، لست أنت يا رسول الله من قتالهم وسؤالهم وعقابهم فى شيء ، وإنما عليك تبليغ الرسالة وإظهار شعائر الدين الحق الذى أمرت بالدعوة إليه ، أنت يا محمد برىء منهم ، وهم منك براء ، إنما أمرهم وحسابهم على الله وحده ، ثم ينبئهم فى الآخرة ويجازيهم أحسن الجزاء بما كانوا يفعلون .

الجزاء على العمل

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَالٍ هَوْمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

روى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه قال : « إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات فمن هم بحسنة ولم يفعلها كتبت له عند الله حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعلها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة ولم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعلها كتبها الله سيئة واحدة » (٣) .

من جاء يوم القيامة بالخصلة الحسنة والفعلة الطيبة جازاه الله عليها عشر حسنات ، والمضاعفة بعد ذلك إلى سبعمائة أو ما شاء بعد ذلك من زيادة الله أعلم بها ، تختلف على حسب مشيئته تعالى وعلمه

(١) أخرجه أبو داود فى السنة (١) ، والدارمى فى السير (٧٤) .

(٢) الآية ١٠٥ من سورة آل عمران .

(٣) أخرجه البخارى فى الرقاق (٣١) وفى التوحيد (٣٥) . وأخرجه مسلم فى الإيمان (٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٥٩) وأخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ٦ : ١٠) والإمام أحمد فى (١ : ٢٢٧ ، ٢٧٩) وفى (٣ : ١٤٩) .

بأحوال المحسنين » إذ من يبذل درهما ونفسه غير راضية لا يكون كمن ينفقه طيبة به نفسه مسرورة بعملها ^(١) .

ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها فقط وهم لا يظلمون ، أى لا ينقصون من أعمالهم شيئاً ^(٢) . وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ^(٣) .

التوحيد والإخلاص في العقيدة والعمل والجزاء على ذلك

قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ^(١٦١) قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ^(١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ^(١٦٣) نُلْ أَعْبُدُ اللَّهَ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ^(١٦٤)

المفردات : ﴿ دينا قيما ﴾ : يقوم به أمر الناس ونظامهم في الدنيا والآخرة أو قائماً مستقيماً لا عوج فيه . ﴿ حنيفاً ﴾ : مائلاً عن الضلالة إلى الاستقامة والمراد مائلاً عن الأديان الباطلة إلى دين الإسلام . ﴿ نسكى ﴾ : عبادتى من حج وغيره . ﴿ محياى ومماتى ﴾ : المراد ما آتاه في حياته وموتى . ﴿ وازرة ﴾ : الوزر الحمل الثقيل ، والمراد النفس الآثمة المذنبة .

هذا ختام سورة جامعة لأصول التوحيد ، شارحة للعقيدة الإسلامية ، وبخاصة أحوال البعث والجزاء ، وإثبات الرسالة وما يتبع ذلك ولهذا كان ختامها خلاصة ما تقدم .

قل يا محمد إننى هداى الله ووفقنى إلى صراط مستقيم لا عوج فيه ، هو الدين القيم الموصل إلى سعادة الدارين ، الذى يقوم به أمر الناس فى معاشهم ومعادهم ، وبه يصلحون ، هذا الدين هو ملة أبيكم إبراهيم الخليل فالتزموه حال كونه حنيفاً مائلاً عن جميع وسائل الشرك والباطل إلى الدين الحق الذى من دعائه فى كل صلاة ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ ^(٣) .

وما كان إبراهيم من المشركين أبداً ، فأما من يعتقد أن الملائكة بنات الله أو عزيز أو المسيح ابن الله فهؤلاء هم المشركون ، وليسوا على ملة إبراهيم ﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ ^(٤) هذا الدين هو دين الإخلاص ، والعمل لله هو

(١) أخرجه البخارى فى الإجارة (١) . ومسلم فى الزكاة (٧٩) . وأبو داود فى الزكاة (٥ ، ٤٣) والإمام مالك فى البيوع (٩٢) .

(٢) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء . (٤) الآية ١٢٥ من سورة النساء .

(٣) الآية ٦ من سورة الفاتحة .

الذى ارتضاه لأنبيائه ، ورسله ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ ^(١) ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ^(٢) . هذا هو التوحيد الخالص فى العقيدة .

قل لهم يا محمد إن صلاتى ودعائى ونسكى وعبادتى وما آتته فى حياتى كلها ، بل وحياتى ومماتى ، كل ذلك خالص لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين المتقادين إلى امتثال أمر الله .

والآية الشريفة جامعة لكل أعمال المسلم ، فيجب عليه أن يوطد العزم ويعقد النية على أن صلاته وعبادته وحياته وما يأتته فيها وموته وما يلاقى فيه كل ذلك لله لا شىء آخر فإن عاش فله وإن مات فله له الحكم وله الأمر .

ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى

فالمسلم لا يحرص على الحياة ، ولا يرهب الموت ، بل يكون الموت فى سبيل الله أسمى أمانيه لا يقعد عن الجهاد ، ولا يتوانى عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهكذا جند الله الصحابة رضوان الله عليهم .

قل لهم يا محمد أغير الله أبغى ربا ، وأشركه فى العبادة وأتوجه إليه فى الدعاء ، والله سبحانه رب كل شىء وخالق كل شىء .

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ ﴾ ^(٣) .

أما الجزاء على هذا فهذا نظامه :

ولا تكسب كل نفس إثماً أو ذنباً إلا كان عليها جزاؤه ووزره ، ولا تزر نفس وزر غيرها أبداً ، بل كل نفس بما كسبت رهينة ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، فهذا هو الدين ، دين العمل والجد ، لا دين الأمانى والغرور الكاذب .

وهذه الوصية من أعظم دعائم الإصلاح للمجتمع البشرى ، ومن أعلى مزايا الدين الإسلامى ، ومن أقوى معاول الهدم للوثنية .

ثم إلى ربكم مرجعكم لا إلى غيره ، ثم هو وحده يبعثكم ويجازيكم على أعمالكم التى كنتم فيها تختلفون .

سنة الله فى الخلق

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

(١) الآية ١٩ من سورة آل عمران . (٢) الآية ١٥ من سورة آل عمران . (٣) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

هذا هو الدواء لا غير ، وهذا هو العلاج فحسب ، به تهدأ النفوس وتطمئن القلوب .
 فنحن خلائف من تقدمنا ، فليس لنا بقاء ، وكما وصلت إلينا ستخرج منا ، ونحن خلائف فلا
 ملك لنا ولا تصريح في الواقع ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾^(١) .
 إذا كان هذا فلم هذا التناحر والتهالك والتباغض والتكالب ، ولماذا تبخلون بما جعلكم مستخلفين
 فيه .

والله سبحانه رفع بعضكم فوق بعض درجات في العلم والعمل والغنى والفقر ، ليلوكم جميعا كل
 بما عنده ، فيختبر الغنى هل يؤدي زكاة ماله ، هل يتصدق بالفضل من ماله ، هل يعطف على الفقير
 والمحتاج والمسكين ، أم هونهم جشع صلد صلب كالحجر ، نعم ويلو الفقير هل يصبر ويرضى ، أم
 يشكو ويكفر ؟

وإذا كان الله سبحانه قد رفع بعضنا فوق بعض فما علينا إلا العمل والجد والصبر والرضا بقضاء
 الله وقدره ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وإن ما أصابك لم يكن ليخطئك ﴿ لكيلا تأسوا على ما
 فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾^(٢) .

وعلى الجملة فهذا علاج نفسى لعل السخائم والتحاسد والعلاج الاقتصادى معروف . تشير إليه
 الآية أيضا ، وهو الاشتراكية الإسلامية الممثلة في الزكاة المطلقة والمقيدة ، والنظم المالية المعروفة في الفقه
 الإسلامى .

إن ربك سريع العقاب ، شديد العذاب لا يهمل ، وإن أمهل يُمكن للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ،
 يخلق في الضعيف المسكين قوة يحاد لها الملك الجبار ، فاعتبروا بما مر بنا من الآيات ﴿ وما أصابكم من
 مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾^(٣) وإنه لغفور لكل تائب ، رحيم بكل محسن .

(٣) الآية ٣٠ من سورة الشورى .

(١) الآية ٧ من سورة الحديد .

(٢) الآية ٢٣ من سورة الحديد .

سورة الأعراف

هذه السورة نزلت بمكة إجماعاً .
وعدد آياتها مائتان وست آيات ، في عد قراء الكوفة والحجاز ، وخمس في عد قراء الشام والبصرة .
وكلماتها ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمس وعشرون كلمة ، وحروفها أربعة عشر ألفاً وثلاثمائة وعشرة أحرف .

قال صاحب البصائر رحمه الله تعالى ولهذه السورة ثلاثة أسماء : سورة الأعراف في ﴿ ونادى أصحاب الأعراف ﴾ ^(١) وهو سور بين الجنة والنار . والثاني : سورة الميقات لاشتغالها على ذكر ميقات موسى في قوله ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾ ^(٢) . الثالث : سورة الميثاق لاشتغالها على حديث الميثاق في قوله : ﴿ ألتست بربكم قالوا بلى ﴾ ^(٣) . وأشهرها سورة الأعراف .

مقصود السورة

على سبيل الإجمال : تسليية النبي ﷺ في تكذيب الكفار إياه ، وذكر وزن الأعمال يوم القيامة ، وذكر خلق آدم ، وإبلاء إبليس من السجود لآدم ، وسوسته لهما للأكل من الشجرة ، وتحذير بني آدم من قبول وسوسته ، والأمر باتخاذ الزينة وستر العورة في وقت الصلاة ، والرد على المكذبين ، وتحريم الفواحش ظاهراً وباطناً .

وبيان مذلة الكفار في النار ، ومناظرة بعضهم بعضاً ، ويأسهم من دخول الجنة ، وذكر المنادى بين الجنة والنار ، ونداء أصحاب الأعراف لكلا الفريقين ، وتمنيهم الرجوع إلى الدنيا ، وحجة التوحيد والبرهان على ذات الله تعالى وصفاته ، وقصة نوح والطوفان ، وذكر هود وهلاك عاد ، وحديث صالح وقهر ثمود ، وخبر لوط وقومه ، وخبر شعيب وأهل مدين ، وتخويف الآمنين من مكر الله ، وتفصيل أحوال موسى (وفرعون والسحرة واستغاثة بني إسرائيل وذكر الآيات المفصلات وحديث خلافة هارون وميقات موسى) وقصة عجل السامري في غيبة موسى ، ورجوع موسى إلى قومه ومخاطبته لأخيه هارون .

وذكر النبي العربي ﷺ ، والإشارة إلى ذكر الأسباط ، وقصة أصحاب السبت ، وأهل أيلة ، وذم علماء أهل الكتاب .

وحديث الميثاق ، ومعاهدة الله تعالى الذرية ، وطرده بلعام بسبب ميله إلى الدنيا ، ونصيب جهنم من الجن والإنس ، وتخويف العباد بقرب يوم القيامة ، وإخفاء علمه على العالمين ، وحديث صحبة آدم وحواء في أول الحال ، وذم الأصنام وعبادها ، وأمر الرسول بمكارم الأخلاق ، وأمر الخلائق بالإنصاف والاستماع لقراءة القرآن .

(١) الآية ٤٨ من سورة الأعراف . (٢) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف . (٣) الآية ١٧٢ من سورة الأعراف .

والإخبار عن خضوع الملائكة في الملكوت وانقيادهم بحضرة الجلال في قوله ﴿ يسبحونه وله يسجدون ﴾^(١).

المتشابهات

قوله : ﴿ ما منعك ﴾ هنا وفي (ص) ﴿ يا إبليس ما منعك ﴾ وفي الحجر ﴿ قال يا إبليس مالك ﴾ بزيادة ﴿ يا إبليس ﴾ في السورتين لأن خطابه قرب من ذكره في هذه السورة ، وهو قوله : ﴿ إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك ﴾ فحسن حذف النداء والمنادى ولم يقرب في (ص) قرينه منه في هذه السورة ، لأن في (ص) ﴿ إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾ بزيادة ﴿ استكبر ﴾ فزاد حرف النداء والمنادى فقال : ﴿ يا إبليس ما منعك ﴾ وكذلك في الحجر فإن فيها ﴿ إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾ بزيادة ﴿ أبى ﴾ فزاد حرف النداء والمنادى فقال ﴿ يا إبليس مالك ﴾ .

قوله : ﴿ ألا تسجد ﴾ وفي (ص) ﴿ أن تسجد ﴾ وفي الحجر ﴿ ألا تكون ﴾ فزاد في هذه السورة ﴿ لا ﴾ وللمفسرين في ﴿ لا ﴾ أقوال : قال بعضهم : ﴿ لا ﴾ صلة كما في قوله ﴿ لئلا يعلم ﴾ وقال بعضهم : الممنوع من الشيء مضطر إلى خلاف ما منع منه ، وقال بعضهم معناه من قال لك : لا تسجد ، وقد ذكر في مطولات مبسوطة والذي يليق بهذا الموضع ذكر السبب الذي خص هذه السورة بزيادة ﴿ لا ﴾ دون السورتين .

قال تاج القراء : لما حذف فيها يا إبليس ، واقتصر على الخطاب جمع بين لفظ المنع ولفظ لا ، زيادة في النفي ، وإعلاماً أن المخاطب به إبليس ، خلافاً للسورتين ، فإنه صرح فيهما باسمه . وإن شئت قلت : جمع ما في هذه السورة وبين ما في (ص) والحجر فقال : ما منعك أن تسجد ، مالك ألا تسجد ، وحذف مالك لدلالة (الحال ودلالة) السورتين عليه ، فبقى ما منعك ألا تسجد ، وهذه لطيفة فاحفظها .

قوله : ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ وفي (ص) مثله وقال في الحجر ﴿ لم أكن لأسجد لبشر ﴾ فجاء على لفظ آخر ، لأن السؤال في الأعراف و (ص) : ﴿ ما منعك ﴾ فلما اتفق السؤال اتفق الجواب ، وهو قوله ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ ولما زاد في الحجر لفظ ﴿ تكون ﴾ في السؤال وهو قوله ﴿ مالك ألا تكون مع الساجدين ﴾ زاد في الجواب أيضاً لفظ الكون فقال ﴿ لم أكن لأسجد لبشر ﴾ .

قوله ﴿ أنظرنى إلى يوم يعثون ﴾ وفي الحجر وفي (ص) ﴿ رب فأنظرنى ﴾ لأنه سبحانه لما اقتصر في السؤال على الخطاب ، دون صريح الاسم في هذه السورة ، اقتصر في الجواب أيضاً على الخطاب دون ذكر المنادى . وأما زيادة الفاء في السورتين دون هذه السورة ، فلأن داعية إلغاء ما تضمنه

(١) الآية ٢٠٦ من سورة الأعراف .

النداء من أدعو ، أو أنادى نحو قوله ﴿ ربنا فاغفر لنا ﴾ أى أدعوك ، وكذلك داعية الواو فى قوله ﴿ ربنا وآتنا ﴾ فحذف المنادى ، فلما حذفه حذفت الفاء .

قوله ﴿ إنك من المنظرين ﴾ هنا وفى السورتين ﴿ فإنك ﴾ لأن الجواب يبنى على السؤال . ولما خلا السؤال فى هذه السورة عن الفاء خلا الجواب عنه ، ولما ثبت الفاء فى السؤال فى السورتين ثبتت فى الجواب ، والجواب فى السور الثلاثة إجابة ، وليس باستجابة .

قوله ﴿ فما أغويتنى ﴾ فى هذه السورة وفى (ص) ﴿ فبعزتك لأغوينهم ﴾ وفى الحجر ﴿ رب بما أغويتنى ﴾ لأن ما فى هذه السورة موافق لما قبله فى الاختصار على الخطاب ، دون النداء ، وما فى الحجر موافق لما قبله من مطابقة النداء ، وزاد فى هذه السورة الفاء (التى هى للعطف ليكون الثانى مربوطاً بالأول ، ولم يدخل فى الحجر ، فاكتفى بمطابقة النداء (لا متناع النداء) منه ، لأنه ليس بالذى يستدعيه النداء ، فإن ذلك يقع مع السؤال والطلب ، وهذا قسم عند أكثرهم ، بدليل ما فى (ص) وخبر عند بعضهم والذى فى (ص) على قياس ما فى الأعراف دون الحجر ، لأن موافقتهم أكثر على ما سبق ، فقال ﴿ فبعزتك ﴾ والله أعلم .

وهذا الفصل فى هذه السورة برهان لاعم ، وسأل الخطيب نفسه عن هذه المسائل ، فأجاب عنها وقال ! إن امتصاص ما مضى إذا لم يقصد به أداء الألفاظ بعينها كان اتفاقها واختلافها سواءً ، إذا أدى المعنى المقصود ، وهذا جواب حسن إن رضيت به كفيت مؤنة السهر إلى السحر .

قوله ﴿ قال اخرج منها مذءوما مدحوراً ﴾ ليس فى القرآن غيره ، لأنه سبحانه لما بالغ فى الحكاية عنه بقوله ﴿ لأقعدن لهم ﴾ بالغ فى ذمه ، فقال : ﴿ اخرج منها مذءوماً مدحوراً ﴾ والذأم أشد الذم .

قوله ﴿ وهم بالآخرة كافرون ﴾ ما فى هذه السورة جاء على القياس وتقديره : وهم كافرون بالآخرة تقدم ﴿ بالآخرة ﴾ تصحيحاً لفواصل الآية ، وفى هود ، لما تقدم ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴾ ثم قال ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ ولم يقل ﴿ عليهم ﴾ والقياس ذلك التبس ، أنهم هم أم غيرهم ، فكرر وقال ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ ليعلم أنهم هم المذكورون لا غيرهم ، وليس (هم) هنا للتأكيد كما زعم بعضهم ، لأن ذلك يزداد مع الألف واللام ملفوظاً أو مقدرأ .

قوله ﴿ وهو الذى يرسل الرياح ﴾ هنا ، وفى الروم بلفظ المستقبل ، وفى الفرقان وفاطر بلفظ الماضى ، لأن ما قبلها فى هذه السورة ذكر الخوف والطمع ، وهو قوله ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ وهما يكونان فى المستقبل لا غير ، فكان يرسل بلفظ المستقبل أشبه بما قبله ، وفى الروم قبله . ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ﴾ فجاء بلفظ المستقبل ليوافق ما قبله ، وأما فى الفرقان فإن قبله ﴿ كيف مد الظل ﴾ وهو الذى جعل لكم (ومرج وخلق) وكان الماضى أليق به ، وفى فاطر مبنى على أول السورة ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً ﴾

وهما بمعنى الماضي فبنى على ذلك ﴿ أرسل ﴾ بلفظ الماضي ليكون الكل على مقتضى اللفظ الذى خص به .
 قوله : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً ﴾ هنا بغير واو ، وفى هود والمؤمنين ﴿ ولقد ﴾ بالواو ، لأنه لم يتقدم
 فى هذه السورة ذكر رسول ، فيكون هذا عطفاً عليه ، بل هو استئناف كلام ، وفى هود تقدم ذكر
 الرسل مرات ، وفى المؤمنين تقدم ذكر نوح ضمناً ، لقوله ﴿ وعلى الفلك تحملون ﴾ لأنه أول من صنع
 الفلك ، فعطف فى السورتين بالواو .

قوله ﴿ أبلغكم ﴾ فى قصة نوح وهود بلفظ المستقبل ، وفى قصة صالح وشعيب ﴿ أبلغتكم ﴾
 بلفظ الماضي لأن (ما) فى قصة نوح وهود وقع فى ابتداء الرسالة و (ما) فى قصة صالح وشعيب وقع فى
 آخر الرسالة ، ودنو العذاب .

قوله ﴿ فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ وفى يونس
 ﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك ﴾ لأن أنجيناه ونجيناه للتغدى ، لكن التشديد يدل على الكثرة
 والمبالغة ، وكان فى يونس ﴿ ومن معه ﴾ ولفظ ﴿ من ﴾ يقع على أكثر مما يقع عليه ﴿ الذين ﴾ لأن
 ﴿ من ﴾ يصلح للواحد والاثنين والجماعة والمذكر والمؤنث ، بخلاف الذين ، فإنه لجمع المذكر
 فحسب ، وكان التشديد مع (من) أليق .

قوله : ﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ وفى هود ﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم
 عذاب قريب ﴾ وفى الشعراء ﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾ لأن فى هذه السورة
 بالغ فى الوعظ فبالغ فى الوعيد ، فقال ﴿ عذاب أليم ﴾ وفى هود لما اتصل بقوله ﴿ تمتعوا فى داركم ثلاثة
 أيام ﴾ وصفه بالقرب فقال ﴿ عذاب قريب ﴾ وزاد فى الشعراء ذكر اليوم لأن قبله : ﴿ لها شرب
 ولكم شرب يوم معلوم ﴾ والتقدير لها شرب يوم معلوم فختم الآية بذكر اليوم فقال عذاب يوم عظيم .
 قوله ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم ﴾ على الوحدة .

وقال ﴿ وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾ حيث ذكر الرجفة وهى
 الزلزلة ، وخذ الدار وحيث ذكر الصيحة جمع لأن الصيحة كانت من السماء ، فبلوغها أكثر وأبلغ من
 الزلزلة . فاتصل كل واحد بما هو لائق به .

قوله : ﴿ وتنحتون الجبال بيوتا ﴾ فى هذه السورة وفى غيرها ﴿ من الجبال ﴾ لأن (ما) فى
 هذه السورة تقدمه ﴿ من سهوها قصوراً ﴾ فاكتفى بذلك .

قوله ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ وفى غيرها ﴿ فساء مطر
 المنذرين ﴾ لأن ما فى هذه وافق ما بعده وهو قوله ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ قوله :
 ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ﴾ بالاستفهام . وهو استفهام تقرير وتوبيخ وإنكار ، وقال
 بعده ﴿ أنكم لتأتون ﴾ فزاد مع الاستفهام (إن) لأن التقرير والتوبيخ والإنكار فى الثانى أكثر ، ومثله

في التمل ﴿أتأتون﴾ وبعده ﴿أنكم﴾ وخالف في العنكبوت فقال ﴿أنكم لتأتون الفاحشة﴾ ﴿أنكم لتأتون الرجال﴾ فجمع بين أئن وأئن وذلك لموافقة آخر القصة فإن في الآخر ﴿إنا منجوك﴾ وإنا منزلون فتأمل فيه فإنه صعب المستخرج .

قوله : ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ هنا بلفظ الاسم وفي التمل ﴿قوم تجهلون﴾ بلفظ الفعل ، لأن كل إسراف جهل وكل جهل إسراف ، ثم ختم الآية بلفظ الاسم موافقة لرعوس الآيات المتقدمة ، وكلها أسماء للعالمين ، الناصحين ، المرسلين ، جاثمين ، كافرون ، مؤمنون ، مفسدون ، وفي التمل وافق ما قبلها من الآيات وكلها أفعال : تبصرون يتقون يعلمون .

قوله : ﴿وما كان جواب قومه﴾ بالواو في هذه السورة وفي سائر السور (فما) بالفاء لأن ما قبله اسم والفاء للتعقيب والتعقيب يكون مع الأفعال . فقال في التمل ﴿تجهلون فما كان﴾ وكذلك في العنكبوت ﴿وتأتون في ناديك المنيكر فما كان﴾ وفي هذه السورة ﴿مسرفون وما كان﴾ وقال ﴿أخرجوهم من قريتهم﴾ في هذه السورة وفي التمل ﴿أخرجوا آل لوط﴾ ما في هذه السورة كناية فسرهما ما في السورة التي بعدها وهي التمل ويقال : نزلت التمل أولافصرح في الأولى وكنتى في الثانية . قوله ﴿كانت من الغابرين﴾ مهنا وفي التمل ﴿قدرناها من الغابرين﴾ أى كانت في علم الله من الغابرين . قوله ﴿كذلك يطبع الله﴾ وفي يونس ﴿نطبع﴾ بالنون لأن هذه السورة قد تقدم ذكر الله سبحانه بالتصريح والكناية فجمع بينهما .

فقال : ﴿ونطبع على قلوبهم﴾ بالنون . وختم الآية بالتصريح فقال ﴿كذلك يطبع الله﴾ وأما في يونس فمبنى على ما قبله من قوله ﴿فنجيناه﴾ ﴿وجعلناهم﴾ ﴿ثم بعثنا﴾ بلفظ الجمع فختم بمثله فقال ﴿كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ .

قوله ﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم﴾ وفي الشعراء ﴿قال للملأ حوله﴾ لأن التقدير في هذه الآية : قال الملأ من قوم فرعون وفرعون بعضهم لبعض . فحذف ﴿فرعون﴾ لاشتمال الملأ من قوم فرعون على اسمه كما قال ﴿وأغرقنا آل فرعون﴾ أى آل فرعون وفرعون فحذف ﴿فرعون﴾ لأن آل فرعون اشتمل على اسمه فالقائل هو فرعون نفسه ، بدليل الجواب وهو ﴿أرجه﴾ بلفظ التوحيد والملأ هم المقول لهم إذ ليس في الآية مخاطبون بقوله : ﴿يخرجكم من أرضكم﴾ غيرهم فتأمل فيه فإنه برهان للقرآن شاف .

قوله : ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون﴾ وفي الشعراء ﴿من أرضكم بسحره﴾ لأن الآية الأولى في هذه السورة بنيت على الاختصار ﴿وليس﴾ كذلك الآية الثانية ولأن لفظ الساحر يدل على السحر قوله ﴿وأرسل﴾ وفي الشعراء ﴿وابعث﴾ لأن الإرسال يفيد معنى البعث ويتضمن نوعاً من العلو لأنه يكون من فوق فخصت هذه السورة به لما التبس ليعلم أن المخاطب به فرعون

دون غيره .

قوله ﴿ بكل ساحر عليم ﴾ وفي الشعراء بكل ﴿ سحار ﴾ لأنه راعى ما قبله في هذه السورة ، وهو قوله : ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ وراعى في الشعراء الإمام فإن فيه ﴿ بكل سحار ﴾ بالألف وقرئ في هذه السورة ﴿ بكل سحار ﴾ أيضاً طلباً للمبالغة ، وموافقة لما في الشعراء .

قوله ﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا ﴾ وفي الشعراء ﴿ فلما جاء السحرة قالوا لفرعون ﴾ لأن القياس في هذه السورة وجاء السحرة فرعون وقالوا أو فقالوا لا بد من ذلك لكن أضمر فيه ﴿ فلما ﴾ فحسن حذف الواو .

وخص هذه السورة بإضمار ﴿ فلما ﴾ لأن ما في هذه السورة وقع على الاختصار والاقتصار على ما سبق ، وأما تقديم فرعون وتأخيرها في الشعراء ، لأن التقدير فيهما فلما جاء السحرة فرعون قالوا لفرعون ، فأظهر الأول في هذه السورة لأنها الأولى ، وأظهر الثاني في الشعراء لأنها الثانية .

قوله ﴿ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾ وفي الشعراء ﴿ إذا لمن المقربين ﴾ ﴿ إذا ﴾ في هذه السورة مضمرة مقدرة لأن ﴿ إذا ﴾ جزاء ، ومعناه إن غلبتم قربتكم ، ورفعت منزلتكم ، وخص هذه السورة بالإضمار اختصاراً . قوله : ﴿ إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ وفي طه : ﴿ وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ راعى في السورتين أواخر الآي ومثله ﴿ فألقى السحرة ساجدين ﴾ في السورتين وفي طه ﴿ سجداً ﴾ وفي السورتين أيضاً ﴿ آمنا برب العالمين ﴾ وفي طه ﴿ رب العالمين ﴾ وفي السورتين ﴿ رب موسى وهارون ﴾ وفي طه ﴿ رب هارون وموسى ﴾ وفي هذه السورة ﴿ فسوف تعلمون لأقطعن ﴾ وفي الشعراء ﴿ فسوف تعلمون لأقطعن ﴾ وفي طه ﴿ فلاقطعن ﴾ وفي السورتين ﴿ ولأصلبنكم أجمعين ﴾ وفي طه ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ .

وهذا كله لمراعاة فواصل الآي ، لأنها فرعية يبنى عليها مسائل كثيرة .

قوله ﴿ آمنتم به ﴾ وفي السورتين : ﴿ آمنتم له ﴾ لأن هنا يعود إلى رب العالمين وهو المؤمن ﴿ به ﴾ سبحانه وفي السورتين يعود إلى موسى لقوله ﴿ إنه لكبيركم ﴾ وقيل آمنتم به وآمنتم له واحد .

قوله ﴿ قال فرعون ﴾ وفي السورتين ﴿ قال آمنتم ﴾ لأن هذه السورة مقدمة على السورتين ، فصرح في الأولى وكنى ، في الآخرين ، وهو القياس وقال الإمام لأن (ما) هنا بعد عن ذكر فرعون فصرح وقرب في السورتين ذكره فكنى .

قوله ﴿ ثم لأصلبنكم ﴾ وفي السورتين ﴿ ولأصلبنكم ﴾ لأن (ثم) يدل على أن الصلب يقع بعد التقطيع وإذا دل في الأولى علم في غيرها ولأن الواو يصلح لما يصلح له (ثم) قوله ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ وفي الشعراء ﴿ لاضير إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ بزيادة ﴿ لاضير ﴾ لأن هذه السورة اختصرت فيها القصة وأشيعت في الشعراء ، وذكر فيها أول أحوال موسى مع فرعون إلى آخرها فبدأ بقوله ﴿ ألم نربك فينا وليداً ﴾ وختم بقوله ثم ﴿ أغرقنا الآخرين ﴾ فلهذا وقع زوائد لم تقع في الأعراف وطه

فتأمل تعرف إعجاز التنزيل .

قوله ﴿ يسومونكم سوء العذاب يقتلون ﴾ بغير واو على البدل .

قوله ﴿ لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ﴾ هنا وفي يونس : ﴿ قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله ﴾ لأن أكثر ما جاء في القرآن من لفظ الضر والنفع معاً جاء بتقديم لفظ الضر ، لأن العابد يعبد معبوده خوفاً من عقابه أولاً ، ثم طمعاً في ثوابه ثانياً يقويه قوله : ﴿ يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾ .

وحيث تقدم النفع تقدم لسابقه لفظ تضمن نفعا ، وذلك في ثمانية مواضع : ثلاثة منها بلفظ الاسم ، وهى ههنا ، والرعد ، وسبأ . وخمسة بلفظ الفعل وهى فى : الأنعام ﴿ مالا ينفعنا ولا يضرنا ﴾ وفى آخر يونس ﴿ مالا ينفعك ولا يضرك ﴾ وفى الأنبياء ﴿ مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم ﴾ وفى الفرقان ﴿ مالا ينفعهم ولا يضرهم ﴾ وفى الشعراء ﴿ أو ينفعونكم أو يضرون ﴾ أما فى هذه السورة فقد تقدمه ﴿ من يهد الله فهو المهتدى ومن يضل ﴾ فقد قدم الهداية على الضلالة .

وبعد ذلك ﴿ لاستكثر من الخير وما مسنى السوء ﴾ فقد قدم الخير على السوء ، فكذلك قدم النفع على الضر ، وفى الرعد ﴿ طوعاً وكرهاً ﴾ فقد قدم الطوع وفى سبأ ﴿ يسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ فقد قدم البسط ، وفى يونس قدم الضر على الأصل ، ولموافقة ما قبلها ﴿ لا يضرهم ولا ينفعهم ﴾ وفيها ﴿ وإذا مس الإنسان الضر ﴾ متكرر فى الآية ثلاث مرات .

وكذلك ما جاء بلفظ الفعل فلسابقه معنى يتضمن فعلاً ، أما سورة الأنعام ففيها ﴿ ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها ﴾ ثم وصلها بقوله ﴿ قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ﴾ وفى يونس تقدمه قوله ﴿ ثم نجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين ﴾ ثم قال ﴿ ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ﴾ وفى الأنبياء تقدمه قول الكفار لإبراهيم فى المجادلة ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفيعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم ﴾ وفى الفرقان تقدمه قوله ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ﴾ وعد نعماً جمّة فى الآيات ، ثم قال ﴿ ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ﴾ نأمل فإنه برهان ساطع للقرآن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصَّ ۝ كَتَبْنَا نُزْلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝
اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝

المفردات : ﴿ المص ﴾ : هذه حروف تكتب كأنها كلمة ، وعند القراءة تقرأ هكذا : ألف لام ميم ، صاد وهى كغيرها مما افتتح به سورة البقرة وآل عمران .

ويراد بها الإشارة إلى أن هذا الكتاب الكريم معجز ، فقد نزل بهذه الحروف وما شابهها من حروف الهجاء ، وقد تحدى القرآن فصحاء العرب الذى يتكلمون بهذه الحروف ، تحداهم أن يأتوا بحديث مثله فعجزوا ، أو بعشر سور فعجزوا ، أو بسورة فعجزوا . قال تعالى ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴿ ^(١) . ﴿ حرج ﴾ : ضيق وألم . ﴿ ذكرى ﴾ تذكر نافع وموعظة حسنة .

﴿ كتاب أنزل إليك ﴾ هذا خبر فيه تشريف للكتاب ، إذ أن الذى أنزله هو رب الأرباب ، مالك الملك وملك الملوك ، كما أن فيه تشريفاً لمن أنزل الله عليه الكتاب ، وهو مبعوث العناية الإلهية ، وشمس الهداية الربانية ، الرجل الذى علم المتعلمين ، وبعث الأمل فى قلوب اليائسين ، وقاد سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط ، ومعترك الأمواج ، إلى بر النجاة وشاطئ الأمان إلى طريق الله رب العالمين ، هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد لتخرج الناس من ظلمات الشرك والضلال ، إلى نور التوحيد والهدى ، لترتفع بالبشرية من حضيض الغبراء إلى باذخ العلياء .

فلا يكن فى صدرك أى حرج من تبليغه . وهذا تثبيت لفؤاد المصطفى ﷺ ، فإنه لاقى الكثير والكثير من الأذى ، وعناد المعاندين فى سبيل تبليغ الدعوة . قال تعالى ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبال المرسلين ﴾ ^(٢) .

وقال عز من قائل : ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شئ وكيل ﴾ ^(٣) .

وقال تبارك وتعالى ﴿ ولقد نعلم أنه يضيق صدرك بما يقولون ﴾ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ ^(٤) .

وقال عظمت حكمته ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ﴾ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴿ ^(٥) .

وقد أنزل الله هذا الكتاب على هذا النبى المصطفى مبيناً أنه للإنذار والذكرى قال ﴿ لتذر به وذكرى للمؤمنين ﴾ ^(٦) وفى الإنذار تخويف وترهيب ، وللذكرى طمأنينة وترغيب ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ ^(٧) وبين الترهيب والترغيب تؤتى الموعظة ثمرتها والهدف المنشود منها .

(٥) الآيات ١٢٧ ، ١٢٨ من سورة النحل .

(٦) الآية ٢ من سورة الأعراف .

(٧) الآية ٥٥ من سورة الذاريات .

(١) الآيات ٢٣ ، ٢٤ من سورة البقرة .

(٢) الآيات ٣٣ ، ٣٤ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ١٢ من سورة هود .

(٤) الآيات ٩٧ - ٩٩ من سورة الحجر .

ثم وجه سبحانه وتعالى الخطاب إلى البشرية جمعاء فقال ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾ .

قال ﷺ « اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم »^(١) .

وقال « كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم » ثم تلا قوله تعالى ﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾^(٢) .

روى الترمذى بسنده عن الحارث الأعور عن على قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنه ستكون فتن كقطع الليل المظلم قيل : فما النجاة منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشعب منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، من علم علمه سبق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به فقد هدى إلى صراط مستقيم »^(٣) .

قال الله تعالى ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ أى لا تتجاوزوا هذا الذى أنزل إليكم من ربكم ، ولا تفارقوه ، بل التزموه بالاتباع والتنفيذ ، ولا تأخذوا تشريعكم وأحكامكم من غيره ، مهما كانت ولايته ، سواء كان من طواغيت الجن والشیاطين ، أم من جبابرة البشر ، فلا حكم ولا تشريع إلا من الله ، والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل ، فالولاية الحق لله وحده ، والسلطان الحق لله وحده ، والتشريع الحق لله وحده .

﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له﴾^(٤) .

وقد أكمل الله دينه ، وأتم نعمته ، ورضى لنا الإسلام ديناً ، وقد ذاق حلاوة الإيمان من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

﴿قليلاً ما تذكرون﴾ أى قليلاً تذكركم ، وكثيراً ما تغفلون ، وقليلاً ما تشكرون ، وكثيراً ما تجحدون ، وقليلاً ما تؤمنون ، والله غالب على أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

(١) أخرجه الدارمى فى المقدمة (٢٢ ، ٢٣) .

(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة (٤٢) .

(٣) أخرجه الدارمى فى فضائل القرآن (١) . والترمذى فى ثواب القرآن (١٤) .

(٤) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

عاقبة الظالمين

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿١﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ
بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢﴾

المفردات : ﴿ كم ﴾ : كلمة وضعت للتكثير . ﴿ قرية ﴾ : هي مكان اجتماع الناس وقيل تطلق على الناس أنفسهم . ﴿ بيّنا ﴾ : ليلاً والمراد الإغارة على العدو ليلاً والإيقاع به على غرة . ﴿ بأسنا ﴾ : عذابنا وهلاكنا . ﴿ قائلون ﴾ : من القيلولة وهي استراحة وسط النهار والمراد نائمون في الظهيرة . ﴿ دعواهم ﴾ : دعاؤهم وقولهم .

يقول الله تعالى ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ أى بمخالفة رسلنا وتكذيبهم ، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة ، كما قال تعالى ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾^(١) وكقوله : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾^(٢) وقال تعالى : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين ﴾ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾^(٣) .

وقوله ﴿ فجاءها بأسنا بيّناً أو هم قائلون ﴾ أى فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته بيّناً أى ليلاً ، أو هم قائلون من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار ، وكلا الوقتين وقت غفلة ، وهو ، كما قال ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بيّناً وهم نائمون ﴾ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴾^(٤) وقال : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين ﴾ أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم ﴾^(٥) .

وقوله ﴿ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ﴾ أى فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم ، وأنهم حقيقون بهذا ، كقوله تعالى ﴿ وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين : فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ﴾ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ﴾ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾^(٦) .

(٤) الآيتان ٩٧ ، ٩٨ من سورة الأعراف .

(٥) الآيات ٤٥ - ٤٧ من سورة النحل .

(٦) الآيات ١١ - ١٥ من سورة الأنبياء .

(١) الآية ١٠ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٤٥ من سورة الحج .

(٣) الآيتان ٥٨ ، ٥٩ من سورة القصص .

عاقبة الكفر في الآخرة

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَلَنَقْصُنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٨﴾
وَالْوِزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ
فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿١٠﴾

قوله ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ﴾ كقوله: ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ (١) وقوله ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴾ (٢).

فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ، ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ رسالاته ، ولهذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ قال عما بلغوا .

عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام يسأل عن رعيته ، والرجل يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها ، والعبد يسأل عن مال سيده ﴾ (٣).

قوله تعالى ﴿ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ .

قال ابن عباس : يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون .

﴿ وما كنا غائبين ﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير ، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء ، لا يغيب عنه شيء ، ولا يغفل عن شيء ، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ (٤).

قوله تعالى ﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ .

(١) الآية ٦٥ من سورة القصص .

(٢) الآية ١٠٩ من سورة المائدة .

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (١١) وفي الجنائز (٣٢) وفي الاستقراض (٢٠) وفي الوصايا (٩) وفي العتق (١٧ ، ١٩) وفي النكاح (٨١ ، ٩٠) وفي الأحكام (١) . وأخرجه مسلم في الإمارة (٢٠) . وأبو داود في الإمارة (١ ، ١٣) . والترمذي في الجهاد (٢٧) .

والإمام أحمد في (٢ : ٥ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١٢١) .

(٤) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

يقول تعالى ﴿ والوزن ﴾ أى للأعمال يوم القيامة ﴿ الحق ﴾ أى لا يظلم تعالى أحداً ، كقوله : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ فأما من ثقلت موازينه * فهو في عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأما هاهوية * وما أدراك ما هيه * نار حامية ﴾ (٣) .

قال تعالى : ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ﴾ (٤) .

قال العلماء : والذي يوضع في الميزان يوم القيامة قليل : الأعمال وإن كانت أعراضاً ، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً ، قال البغوى يروى نحو هذا عن ابن عباس ، كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتیان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف (٥) .

ومن ذلك في الصحيح قصة القرآن ، وأنه يأتى صاحبه في صورة شاب شاحب اللون ، فيقول : « من أنت فيقول أنا القرآن الذى أسهرت ليلك ، وأظمأت نهارك » (٦) .

وفي حديث البراء في قصة سؤال القبر : « فيأتى المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح » (٧) .

وذكر عكسه في شأن الكافر والمنافق .

وقيل : يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذى يؤتى به ويوضع له في كفة تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لا إله إلا الله « فيقول : يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول الله تعالى : إنك لا تظلم ، فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان » قال رسول الله ﷺ « فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » (٨) رواه الترمذى .

وقيل : يوزن صاحب العمل كما في الحديث « يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضه » (٩) ثم قرأ : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ .

(١) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٤٠ من سورة النساء .

(٣) الآيات ٦ — ١١ من سورة القارعة .

(٤) الآيات ١٠١ — ١٠٣ من سورة المؤمنون .

(٥) أخرجه مسلم في المسافرين (٢٥٢ ، ٢٥٣) . والترمذى في ثواب القرآن (٥) . والدارمى في فضائل القرآن (١٥) . والإمام أحمد في (٤ : ١٧٣) وفي (٥ : ٢٤٩) وفي (٥ : ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٣٤٧ ، ٣٥٢ ، ٣٦١) .

(٦) أخرجه ابن ماجه في الأدب (٥٢) .

(٧) أخرجه مسلم في الألفاظ (٢٠) . وأبو داود في الترجيل (٦) . والإمام أحمد في (٢ : ٣٢٠) وفي (٤ : ٢٨٧) .

(٨) أخرجه الترمذى في الإيمان (١٧) . وابن ماجه في الزهد (٣٥) . والإمام أحمد في (٢ : ٢١٣) .

(٩) أخرجه البخارى في تفسير (سورة ١٨ : ٦) ومسلم في المنافقين (١٨) .

وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال : « أتعجبون من دقة ساقيه والذي نفسى بيده لهما في الميزان أثقل من أحد »^(١).

وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً فتارة توزن الأعمال ، وتارة توزن محالها ، وتارة يوزن فاعلها ، والله أعلم .

من نعم الله تعالى على عباده

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

المفردات ﴿ مكناكم ﴾ : من التمكين أى التمليك وقيل جعلنا لكم فيها أمكنة تتبوأونها . وتتمكنون من الإقامة بها .

﴿ معاش ﴾ : جمع معيشة وهى ما تكون به العيشة والحياة من المطاعم والمشارب . يقول تعالى ممتناً على عبيده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قراراً ، وجعل فيها رواسى وأنهاراً ، وجعل لهم فيها منازل وبيوتا ، وأباح لهم منافعها ، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها ، وجعل لهم فيها معاش ، أى مكاسب ، وأسباباً يكسبون بها ويتجرون فيها ويتسبون أنواع الأسباب ، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك ، كقوله : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾^(٢) .

آدم والملائكة وإبليس

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْذُورًا لِّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

المفردات : ﴿ فاهبط ﴾ : الهبوط الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه وهو إما حسى أو معنوى . ﴿ أن تتكبر ﴾ : أن تجعل نفسك أكبر مما هى عليه . ﴿ الصاغرين ﴾ : الصغار الذلة

والهوان . ﴿ انظرني ﴾ : أمهلني . ﴿ فيما أغويتني ﴾ : فيما أوقعتنى فى الغواية وهى ضد الرشاد .
﴿ مدعوماً ﴾ : معيماً من ذأم الشيء عابه . ﴿ مدحوراً ﴾ : مطروداً مبعداً .

قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ أى أردنا خلقكم وقدرنا ذلك فى العلم الأزلى ، فخلقنا المادة التى أنشأكم الله فيها ، ثم صورناها ، وقد يكون المراد ولقد خلقنا أباكم آدم من طين ، ثم صورناه بعد ذلك ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا ، وإنما خاطب الله الذرية بما أنعم به على أبيهم ، لأن تكريم الأب تكريم لهم كما قال تعالى لبنى إسرائيل المعاصرين لسيد المرسلين ﴿ وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ .

ومعلوم أن هذه النعم قد أنعم الله بها على أجدادهم ، فذكر الله بها الأشياء ، لأن نعم الآباء والأجداد نعمة على الأبناء .

ولقد أمر الله تعالى الملائكة وكان إبليس بينهم ، ولم يكن منهم ، أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم ، ولم يكن سجود عباده ، لأنه لا معبود إلا الله ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، قال له مولانا تبارك وتعالى : ما منعك ألا تسجد أى ما حملك على عدم السجود وقد تكون (لا) فى قوله جل شأنه ما منعك ألا تسجد مزيدة للتوكيد ، أى ما منعك من السجود ، وهو المقصود هنا ، لقد أمره الله بالسجود فأبى واستكبر وكان من الكافرين .

﴿ قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ وزعم أن المخلوق بعنصره وجحد أن الفضل للأتنى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾^(١) .

فالمخلوق لا ترجع أفضليته إلى عنصره ، فالعناصر ليست الميزان فى التكريم ، فحق عليه غضب الله وسخطه ، قال ﴿ فاهبط منها ﴾ أى اخرج من زمرة الملائكة ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فإن الملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

فاخرج إنك من الصاغرين الأذلاء ، ﴿ قال أنظرني إلى يوم يبعثون ﴾ أى أخرنى ، قال ﴿ إنك من المنظرين ﴾ أى من المؤخرين . ﴿ قال فيما أغويتنى ﴾ أى بما أوقعتنى فى الغواية ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ وذلك للإغواء .

﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ أى من الأمام والوراء ، فمن ذهب منهم ليفعل الخير وقفت له فى طريقه بالمرصاد ، ومن ذهب ليقترف المعصية دفعته إليها دفعاً ﴿ وعن أيانهم وعن شمائلهم ﴾ أسد باب الطاعة ، وأفتح باب الغواية ، لكنه لعنه الله لم يستطع أن يأتينا من فوقنا ، أو تحتنا ، ذلك لأن جهة الفوق تنزل منها الرحمات ، وجهة التحت مكان السجود ، فإذا سجد ابن آدم اعتزل

الشيطان يبكى يقول : ﴿ يا ويلي أمر ابن آدم بالسجود فسجد فدخل الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فدخلت النار ﴾ .

لذا حذر الله بنى آدم من هذا العدو اللدود ، قال تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ (١) .

وقال عز وجل : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾ (٢) .

قوله تعالى ﴿ قال اخرج منها مذووماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ أى من الجن والإنس . ممن كفر وعصى ، ومذموماً بمعنى معيماً ، ومدحوراً بمعنى مطروداً ، كما قال تعالى ﴿ وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾ (٣) وكما قال سبحانه وتعالى : ﴿ ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ (٤) .

وقد شئت حكمته أن رحمته وسعت كل شيء ﴿ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ (٥) .

قال إبليس لرب العزة ، ﴿ لأغوينهم ﴾ ما دامت أرواحهم في أبدانهم ، فقال له رب العزة وعزى وجلالى لأغفرن لهم ماداموا يستغفروننى .

سبحان من علم الغيوب ووصفه ستر العيوب وكل ذاك سماح
أخفيت ذنب العبد عن كل الورى كرماً فليس عليه ثم جناح
منك التفضل والتكرم والرضا أنت الإله المنعم الفتاح

أهل ذكرك، أهل عبادتك، أهل طاعتك، أهل محبتك، أهل شكرك، أهل زيادتك ، أهل معصيتك لا تقنطهم من رحمتك ، إن تابوا إليك فأنت حبيبهم ، فإنك تحب التوايين وتحب المتطهرين ، وإن لم يتوبوا فأنت طيبهم ، تتليهم بالمصائب لتطهرهم من الذنوب والمعائب . الحسنة عندك بعشرة أمثالها ، وتزيد والسيئة بمثلها ، وتعفو ، وأنت أرف بعبادك من الأم بولدها .

آدم فى الجنة

وَيَعَادِمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِبَدَيْ لِهُمَا مَا وَدَرَى عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا

(١) الآية ٦ من سورة فاطر .

(٢) الآية ١٣ من سورة السجدة .

(٣) الآية ٨٢ من سورة طه .

(٤) الآيات ٦٠ - ٦٢ من سورة يس .

(٥) الآية ٣٥ من سورة الحجر .

إِنِّي لَكُمْ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَذَلَّلَهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ تَهُمَا وَطَفَقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

المفردات : ﴿فوسوس﴾ : الوسوسة الصوت الخفى المكرر ، ومنه قيل لصوت الحلى وسوسة ، والمراد هنا ما يجدونه من الخواطر التى تزين ما يضر . ﴿ماؤورى﴾ : ما ستر وغطى . ﴿من سوءاتهما﴾ : السوءة ما يسوء الإنسان ويؤلم ، فإذا قيل سوءة الإنسان كان المراد عورته لأنه يسوؤه ظهورها . ﴿وقاسمها﴾ : أقسم لهما بمجد ونشاط . ﴿فدلاهما﴾ : حطهما عن منزلتهما من الجنة . ﴿ذاقا الشجرة﴾ : أكلا منها . ﴿وطفقا﴾ : أخذا وشرعا . ﴿بغور﴾ : الغرور الخداع بالباطل . ﴿يخصفان﴾ : يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة .

إذا كانت قصة آدم قد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ، فليس ذلك تكراراً ، إنما قصص القرآن كثمار الجنة ، كلما رزق أهل الجنة منها من ثمرة رزقا ، قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ، فإذا كانت ثمار الجنة قد تشابهت إلا أنها قد تنوعت فى طعومها وروائحها ، وإذا كانت القصة فى القرآن قد ذكرت فى مواضع شتى ، فليس ذلك من باب التكرار ، إنما كل قصة فى موضعها لها مغزاها ومبناها ومعناها ، ولها فائدتها المستقلة ، ولها مكانتها من طبقات البلاغة الرفيعة العالية ..

ولما كان آدم نموذجا للبشرية التى عمرت الأرض ، فإن الله تعالى قد أجرى على يديه شئونا كان لابد منها لتكون امتداداً منه لذريته ، فالله جلّت قدرته أسجد له الملائكة تكريماً له وتفضيلاً .. قيل لبلال ابن رباح : « ابن من أنت يا بلال ؟ فقال : أن ابن الذى أسجد الله له الملائكة » .

وإذا كان إبليس قد أبى أن يسجد ، ففى ذلك درس لبنى آدم ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ (١) .

وبعد قصة السجود أدخله الله الجنة مع زوجه ليكون لبنى آدم فى ذلك عبرة ، يعلمون منها أن الزواج سنة المرسلين ، وأنه شركة مساهمة رأس مالها المودة والرحمة ، وأنه آية من آيات الله ، وإن تعجب فعجب أن تأتى آية الزواج بين الآيات الكونية ، كأن الزواج سنة من سنن الكون لا يستقيم بدونها ، ولا يقوم بعيدا عنها ..

فقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ ^(١) : إذا تأملت موقع هذه الآية الكريمة لرأيت أنها سبقت بقوله جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ ^(٢) فإذا ما تأملت لحاقها وجدته قول الله جلت قدرته : ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم * إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ ^(٣) .

فهذه آية الزواج وهذا سياقها ، وذاك لحاقها ، كأنها سنة مركوزة في سنن الكون ، لذلك جاء التعبير القرآني صريحا واضحا : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ ولقد أسكن الله آدم الجنة لتشتاق نفسه إليها بعد أن يعيش فيها ، فيمتد هذا الشوق إلى قلوب أبنائه فيعملون أعمالا تقربهم إليها . ولقد نهاه الله عن قرب الشجرة ليمتد ذلك التكليف إلى أبنائه . ولقد نسي آدم فنسى أبنائه ، ولقد أكل من الشجرة فأذنب أبنائه ، ولقد تاب ليتوب أبنائه .

قال ﷺ : « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » ^(٤) .

ولقد وسوس الشيطان لآدم فوسوس لأبنائه ، ولقد تاب آدم فتاب الله عليه ، وهذه رحمة من الله تعالى بآدم وأبنائه إن هم تابوا وأنابوا : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا * إنه هو الغفور الرحيم ﴾ ^(٥) ، ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيمًا * ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابًا ﴾ ^(٦) .

قوله تعالى : ﴿ يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ سواء أكانت هذه الجنة دار الجزاء ، أم كانت جنة بربرة فوق الأرض ، فليست العبرة في حقيقة الجنة ، إنما العبرة كامنة فيما حدث في تلك الجنة ، نعم إنه لا طائل من الخلاف في حقيقة تلك الجنة التي أدخل الله فيها آدم : أهى الجنة التي أعد الله فيها لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؟ أم هي جنة خاصة بآدم ؟

ثم إنه لا طائل من البحث عن نوع تلك الشجرة التي نهى الله آدم وزوجه أن يقرباها ، إذ لو كان في تعيينها خير لعينها الله ، كما عين الشجرة التي أمرت مريم أن تهزها فقال : ﴿ وهزى إليك بجذع النخلة ﴾ ^(٧) . ولقد سبق في علم الله الأزلى أن آدم وأبنائه سيعمرون الأرض : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ ^(٨) . وفي سورة الأعراف ، وقبل أن يحدثنا القرآن عن قصة آدم نقرأ قوله

(١) الآية ٢١ من سورة الروم . (٢) الآية ٢٠ من سورة الروم . (٣) الآية ٢٢ من سورة الروم .

(٤) أخرجه الترمذى في القيامة (٤٩) . وابن ماجه في الزهد (٣٠) . والدارمى في الرقاق (١٨) . والإمام أحمد في (٣ : ١٩٨) .

(٥) الآية ٥٣ من سورة الزمر . (٦) الآيتان ٧٠ ، ٧١ من سورة الفرقان . (٧) الآية ٢٥ من سورة مريم .

(٨) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

تعالى : ﴿ ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش قليلا ما تشكرون ﴾^(١) .

وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يمر آدم بتلك المواقع : يدخل الجنة ، ويوسوس له الشيطان ، ويأكل من الشجرة ، ويتوب الله عليه ، ويهبط إلى الأرض ، ويتناسل ، وتأتي كلمة الله الفاصلة ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾^(٢) .

قوله تعالى : ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما وقال لهما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ .

إن الوسوس التي يلقيها الشيطان في نفس ابن آدم أشد من وقع السهام على الأكباد ، ولها ديب كدبيب النمل ، ولا يشترط أن يكون إبليس قد دخل الجنة ليوسوس لآدم ، بل إنه يستطيع ذلك دون أن يدخلها ، بل يستطيع أن يكلمه عن بعد ، وأبناء آدم يجب أن يكونوا على حذر من هذا ، وخير لهم أن يعلموا قول رسول الله ﷺ : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم »^(٣) .

وإذا وسوس الشيطان فإنه يأتي الإنسان من مأمنه ، لذا فقد جاء لآدم من نفس المأمن ﴿ مانها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ أى مانها كما عن الأكل منها إلا لهذا الغرض ، فقد نهاكما حتى لا تكون لكما صفة الملائكة من شدة وقوة وطول الأجل ، وحتى لا تكونا خالدين كما قال سبحانه في سورة طه ﴿ فوسوس إليه الشيطان ، قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾^(٤) .

فالشيطان يعرف أن الإنسان يحب التملك والخلود ، فالله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، وجرت عادة الناس فيها أن من عضته بناها ذمها ساخطا عليها وشكاها مستريدا لها ، فكل بنى آدم إلا ما رحم ربي يحبون الخلود في الدنيا ولو كان طعامها زقوما وهواؤها سموما ، وماؤها آسنا .

ثم أراد الشيطان أن يقنع آدم بما يقول فأقسم بالله إنه من الناصحين لهما . قال تعالى : ﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾ . ولم يكن آدم يعرف أن هناك من تبلغ به الجرأة فيقسم بالله كاذبا . وكان أحد الصالحين يقول : « من خدعنا بالله انخدعنا به » (ورأى المسيح ابن مريم لصا يسرق فسأله : ما دعاك إلى هذا ، فقال اللص : والله ما سرقت . فقال المسيح : صدقت وكذبت عيناى تعظيما ليمين الله) .

قوله تعالى : ﴿ فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ .

(٢) الآية ٢٥ من سورة الأعراف .

(١) الآية ١٠ من سورة الأعراف .

(٣) أخرجه البخارى في الأحكام (٢١) وفي بدء الخلق (١١) وفي الاعتكاف (١١ ، ١٢) . وأخرجه أبو داود في الصوم (٧٨) وفي السنة

(١٧) وفي الأدب (٨١) . وأخرجه ابن ماجه في الصيام (٦٥) . والدارمي في الرقاق (٦٦) . والإمام أحمد في (٢٣ : ١٥٦ ، ٢٨٥ ،

(٤) الآية ١٢٠ من سورة طه .

(٣٠٩) وفي (٦ : ٣٣٧) .

ما كان آدم ليتصور أن أحدا من خلق الله يعرض يمين الله للكذب ، لذلك بذل إبليس أقصى جهده في سبيل أن يدفع آدم إلى الأكل من الشجرة ، فاستعمل سلاح القسم .

فدلاهما (أى أهبطهما) بغرور وخداع خبيث ، فأكلا من الشجرة . ولما ذاقاها بدا لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما . والسوءة كل ما يسوء الإنسان النظر إليه ويراد بها هنا (العورة) وهكذا من سار في طاعة الله ألبسه الله ثيابا تقيه من عوادي الشيطان ، ومن تاب إلى الله ستره الله .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا ولو كان كاسيا

وليس صحيحاً ما يقال إن المقصود بالشجرة التى أكل منها آدم شجرة الجنس ، فمن قال بذلك فقد قال بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، فألفاظ القرآن عربية تفسر بالقواعد العربية ، واللفظ إما حقيقة أو مجاز ، ولا يمكن أن يلجأ إلى المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة ، بشرط أن تكون هناك قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي . وبشرط أن تكون هناك علاقة بين الحقيقة والمجاز ، فإذا قلت : سمعت أسدا يخطب ، فإن الحقيقة هنا متعذرة إذ الخطابة مستحيلة في حق الأسد . إذن فالأسد هنا مجاز عن الخطيب الشجاع ، وبين الخطيب علاقة هي التشابه في الشجاعة ، هكذا تقرر قواعد اللغة التى نزل بها القرآن الكريم بلسان عربى مبين .

فأين القرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي في قوله تعالى ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ . وفي قوله جل شأنه : ﴿ فلما ذاقا الشجرة ﴾ . وأين العلاقة التى بين الحقيقة والمجاز ؟ إن الشجرة هنا هي الشجرة بوضعها الحقيقى ، لا صلة له بما يقوله الذين يهرفون بما لا يعرفون ، ويحملون الألفاظ مالا تحتمل ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، اللهم إنه لا علاقة ولا قرينة فلا مجاز ، إنما الشجرة لفظ استعمل فيما وضع له فهو على حقيقته .

إن آدم وحواء لما بدتا لهما سوءاتهما طفقا وشرعا يخصفان عليهما من ورق الجنة . أى يضعان ورقة فوق ورقة ، لأن ستر السوءات من نداء الفطرة السليمة .

وناداهما ربهما قائلا ومذكرا : ﴿ ألم أنهيكما عن تلكما الشجرة ﴾ بقولى لكما : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ ألم ﴿ أقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ .

ولقد شعر آدم وحواء بنار الندم وبوخزها الألم ، فأقرا واعترفا وتابا وأنابا وتضرعا إلى مالك الملك وملك الملوك ﴿ قالوا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ .. وكانت هذه كلمات تلقاها آدم من ربه فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم .

﴿ قال اهبطوا ﴾ : (أى إلى الأرض التى كتب الله لكم أن تعمروها) والمقصود بالخطاب هنا آدم وحواء وإبليس بعضكم لبعض عدو . وعداوة الشيطان لابن آدم في غنى عن البيان .

﴿ قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ . وغير بعيد عنا ما سبق ذكره في قوله تعالى : ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ (١) .

ولقد شاءت الحكمة الإلهية العليا أن يظل هذا الصراع بين الحق والباطل إلى يوم الوقت المعلوم ، ولا ملجأ من الله إلا إليه ، ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ (٢) .

وشاءت حكمة الله أن يكون لآدم وذريته مستقر في الأرض ومتاع إلى حين ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ كما قال جلت حكمته : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ (٣) .

لا تركزن إلى الدنيا وما فيها فالموت لاشك يفينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهب والمسك طيتها والزعفران حشيش ثابت فيها
توجيه وتحذير

يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكْمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ
ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ
يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تِهِمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا
الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾

المفردات : ﴿ الريش ﴾ : لباس الحاجة والزينة . ﴿ ولباس التقوى ﴾ : ما يلبس من الطاعة فيكون كالثياب التي تقى صاحبها من الوقوع في مخالفات وذنوب . ﴿ والفتنة ﴾ : الابتلاء والاختبار من قولهم فتن الصائغ الذهب أو الفضة إذا عرضهما على النار ليعرف الزيف من النضار . ﴿ والقبيل ﴾ : الجماعة كالقبيلة ، وقيل القبيلة : من كان لهم أب واحد ، والقبيل أعم .

جاءت هاتان الآيتان بعد ذكر قصة آدم فكانتا بمثابة الدرس والعبرة ، ولا بد لكل قصة من عبرة ودرس ، فقد امتن الله تعالى على البشرية بأنه أنزل عليها لباسا يورى السوء ويستر العورة ، وهذه نعمة لا نستطيع أن نوفى الله شكرها . لكن حسبنا أن نقول : اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، نحمدك على حلمك بعد علمك ، وعلى عفوك بعد قدرتك .

(٣) الآية ٥٥ من سورة طه .

(١) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٩٠ من سورة يوسف .

إذا كان إبليس بوساوسه قد دلى آدم وحواء بغرور منه فبدت لهما سوءاتهما . فإن الله جلت قدرته قد أنزل علينا من الثياب ما نواري به سوءاتنا . والتعبير بـ ﴿ أنزلنا ﴾ يفيد أن مصدر الإنعام والإكرام وأن ولي النعم هو الله ، وأن الخير بين يديه والشر ليس إليه .

ومع اللباس الذى يستر الأجسام والعورات أنزل ريشا وهو ثياب الزينة التى فيها حسن وجمال ، والله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . قال رسول الله ﷺ : « من استجد ثوبا فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتي وأتجمل به فى حياتي ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به كان فى ذمة الله وفى جوار الله وفى كنف الله حيا وميتا » (١) .

وخير من لباس الزينة لباس التقوى : فالتقوى هى السلاح الأقوى ، فإذا كان اللباس يستر الأبدان ويقيها شر الحر والبرد ، فإن لباس التقوى هو ثياب القلوب يقيها وساوس الشيطان ونوازع النفس إلى مسالك الشر .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

قوله تعالى : ﴿ ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ﴾ أى ذلك الذى تقدم ذكره من إنزال الثياب والرياش آية من آيات الله عليكم ونعمة من نعمه التى لا تحصى ، لعلهم يذكرون : فجعل جلال الله خيره إلى العباد نازل وشرهم إليه صاعد ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ (٢) .

قال رسول الله ﷺ « والذى نفس محمد بيده ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية إن خيرا فخير وإن شرا فشر » .

قوله تعالى : ﴿ يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنها لباسهما ليريهما سوءاتهما ﴾ .

بعد أن أرشد الله تعالى عباده إلى أن يتخذوا من اللباس ما يوارى سوءاتهم وكان ذلك الإرشاد امتنانا منه سبحانه وتعالى وتكرما ، حذر الله بعد ذلك بنى آدم من الوقوع فى شرك الشيطان ومصايد ومكايد وشباكه . فقال : ﴿ يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان ﴾ وللشيطان فتن يوقع ابن آدم فيها فيشغله بذلك عن ذكر الله ﴿ ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ﴾ (٣) .

وللشيطان مداخل جاء النهى عنها فى قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ وبين عاقبة ذلك فقال : ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ (٤) . ثم ذكر سبحانه وتعالى أن من أهداف الشيطان أن ينزع عن ابن آدم نعمة اللباس ليريه سوءته وفى

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (١ : ٤٤) .

(٣) الآية ٣٨ من سورة النساء .

(٢) الآية ٣٤ من سورة إبراهيم .

(٤) الآية ٢١ من سورة النور .

ذلك دليل على أن الإنسان مفطور ومجبور على ستر سوءته فهذا أمر فطري ، لكن البشرية لما انحرفت عن طريق ربها وسلكت النفوس إلى نوازع الشر بدلت نعمة الله كفراً فأحلوا قومهم دار البوار . نزع لباسها الذي أنزل الله لها فتعرت من الفضائل ، وما أجمل تعبير القرآن الكريم ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ (١) .

ففى التعبير بالانسلاخ ما يفيد التشويه ، فقد كانت الآيات تزين صاحبها وتكسوه ثوب الجمال والجلال والكمال ، فلما تركها وانفصل عنها أصبح شائها قبيحا ، كذلك يفعل الشيطان مع ابن آدم عندما ينزع عنه لباسه فتبدو سوءته ، وقد كان ﷺ يدعو الله فيقول : اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا .

فانظر كيف قرن ستر العورة بالأمن من الروعات . بل قدم الستر على الأمن ، لتعلم البشرية جمعاء أن الستر نعمة من أجل النعم ، ويوم تفقد البشرية هذه النعمة ، فقد انخرطت في سلك العجماوات . بل إن هناك من الحيوانات أنواعا أبت أن تواجه إنائها إلا بعيدا عن عيون الرقباء ، فما أحوج ابن آدم إلى أن يسلك طريق الله ، إن للشيطان مكاييد ، ولتلك المكاييد عواقب وبعد هذه العواقب تدمير وهلاك . فكم قوَّض من أم عندما احترقت بنار الشهوات ..

﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ والعدو الذى لا يرى أشد خطرا وأشد تنكيلا من العدو الذى يرى قال صاحب البردة :

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصيح فاتهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكما فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

إن الشيطان بمكايده قد يصل بالإنسان إلى مرحلة هى غاية فى الذلة ، فيزين له القبيح فيراه حسنا . قال تعالى : ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾ (٢) وقال جل شأنه : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ (٣) ﴿ إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ (٤) ذلك لأن شبيه الشيء منجذب إليه ، وأن الطيور على أشكالها تقع . ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ (٥) . وقال تعالى : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ﴾ (٦) . وقال جل شأنه : ﴿ ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا * يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا * أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا ﴾ (٧) .

وهناك حزبان : حزب الرحمن وحزب الشيطان ولكل منهما أولياء وتابعون . قال الله تعالى مخبرا عن حزب الرحمن : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم

(١) الآية ١٧٥ من سورة الأعراف . (٣) الآية ٨ من سورة فاطر . (٥) الآية ٦٧ من سورة التوبة .

(٢) الآية ٢٤ من سورة النمل . (٤) الآية ٢٧ من سورة الأعراف . (٦) الآية ٢٦ من سورة النور .

(٧) الآية ١١٩ — ١٢١ من سورة النساء .

أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴿١﴾ . وقال جل شأنه مخبرا عن حزب الشيطان : ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ * إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ﴿٢﴾ (١) وقد يصل الشيطان بالإنسان إلى مرحلة يصبح الإنسان فيها أستاذا في الغواية يقول أحدهم :

و كنت امرأ من جند إبليس فارتقى بي الحال حتى صار إبليس من جندي

وقد بين الله عز وجل حال ذلك الذى انسلخ من الآيات بأنه أصبح متبوعا والشيطان تابعا فقال : ﴿ فأتبعه الشيطان ﴾ ولم يقل فتبع الشيطان فاللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال .

افتراء على الله

وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

المفردات : ﴿ الفاحشة ﴾ الفعل المتناهية في القبح ، والمراد بها هنا طواف أهل الجاهلية عُرة كما ولدتهم أمهاتهم ويقولون : لا نطوف بيت ربنا في ثياب عصيناه بها . ﴿ والقسط ﴾ : الاعتدال في جميع الأمور ، وهو الوسط بين الإفراط والتفريط . ﴿ وإقامة الشيء ﴾ : إعطاؤه حقه وتوفيته شروطه كإقامة الصلاة وإقامة الوزن بالقسط . ﴿ والوجه ﴾ : قد يطلق على العضو المعروف من الإنسان كما في قوله ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ (٢) وقد يطلق على توجه القلب وصحة القصد كما في قوله : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ﴾ (٣) .

لما ذكر سبحانه وتعالى أن هناك من اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، فجعلهم الله تعالى أولياء للذين لا يؤمنون ، ذكر هنا صورة من صور أولياء الشيطان وما أكثرها فقال : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾ لقد كان يطوفون بالبيت عراة رجالا ونساء فإذا سئلوا عن ذلك قالوا : ما كان ينبغي لنا أن نطوف في ثياب عصينا الله فيها ، وهذا القول كما يقولون عذر أقبح من

(١) الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة المجادلة .

(٣) الآية ٣٠ من سورة الروم .

(٢) الآية ١٤٤ من سورة البقرة .

الذنب . فإذا ما نصحهم الناصحون ، ووجههم أهل المعرفة ، قالوا : وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . ثم يزيدون الأمر كذبا وبهتاناً فيقولون : والله أمرنا بها . فجاء الرد والجواب : ﴿ قُلْ إِنْ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ . أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وفي هذا الاستفهام توبيخ وتبكيت وتقريع ، فمن أضل ممن اتبع هواه بغير علم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين . فمن أظلم من افترى على الله كذباً ، ومن أشد ضلالاً ممن قال على الله ما لم يقله ؟ ومن أعظم جرماً ممن يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ؟ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا مِنْ أَوَّلُوهُوَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾^(١) .

إن شر ما ابتليت به البشرية التقليد الأعمى : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنْ وَجَدْنَا آبَاءُنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون * فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾^(٢) .

فكيف طوعت لهؤلاء أنفسهم أن يسندوا فعل الفاحشة إلى أمر الله ؟ إن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء . ﴿ إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْيَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾^(٣) . ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾^(٤) .

إن الإسلام دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، والفحشاء تنافي الفطرة وتجاورها ، فإذا ما انحرفت الأهواء بالنفوس حادت عن طريق الجادة وتنكبت الصراط السوى ، لذلك قيل لأعرابي : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل : ليته ما أمر . ولم ينه عن شيء وقال العقل : ليته ما نهى .

إن الإسلام جلال وكمال وجمال وهو المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ، دعا الناس إلى ما يسعدهم ونهاهم عما يضرهم ، قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾^(٥) .

إن العمل الصالح من أخص خصائص الفطرة السوية ، وإنه ليكسب صاحبه الحياة الطيبة في الدنيا والأجر الحسن في الآخرة ﴿ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهَ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٦) .

(٤) الآية ٢٦٨ من سورة البقرة .

(٥) الآيات ١٢٣ - ١٢٦ من سورة طه .

(٦) الآية ٩٧ من سورة النحل .

(١) الآية ٢١ من سورة لقمان .

(٢) الآيات ٢٢ - ٢٥ من سورة الزخرف .

(٣) الآية ٩٠ من سورة النحل .

إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴿١﴾ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴿٢﴾ . لقد ظللوا في جاهليتهم يطوفون بالبيت عراة الأجسام وفي طوافهم يصفرون ويصفقون ﴿٣﴾ وما كان صلاتهم عند البيت إلامكاء وتصدية ﴿٤﴾ (١) أى صغيراً وتصفيقاً ، ظللوا كذلك إلى أن نزل صدر سورة براءة وفيه يقول الله تعالى : ﴿٥﴾ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا .

ولما حج أبو بكر رضى الله عنه بالمسلمين بالعام التاسع وكان هو الأمير على الحجيج ، ولحق به على ابن أبى طالب يحمل معه صدر سورة براءة أخذ على يبلغ المشركين في مكة وأعلن في صراحة وحزم أن لن يحج بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة كافر ، وبإعلان تلك المبادئ وانتهاء مدة الهدنة التي حددها الله تعالى بأربعة أشهر في قوله : ﴿٦﴾ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزي الله ﴿٧﴾ (٢) بعد هذا كله علموا أنه لا ملجأ من الله إلا إليه ، فدخلوا الإسلام أفواجا ، فصنعهم الإسلام على عينيه وأحاطهم بالعناية والرعاية ثم أنشأهم خلقا آخر ، فجعل منهم قادة للأمم بعد أن كانوا رعاة للغنم ، وصنع منهم زعماء للبشر بعد أن كانوا عبادا للحجر .

ولما حج رسول الله ﷺ حجة الوداع لم يكن بينهم من يدعو غير الله ، بل كانوا جميعا يهتفون • بلا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير • . وارتفعت الحناجر تشق أجواز الفضاء : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، وتغيرت الحال غير الحال ، فطافوا بالبيت برداء وإزار ، وأقاموا وجوههم عند كل مسجد عابدين لله وحده حنفاء مخلصين له الدين ﴿٨﴾ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له ﴿٩﴾ (٣) . وهذا هو القسط والاعتدال وإخلاص العبودية لله .

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وامدد يديك بحبل الله معتصما فإنه الركن إن خانتك أركان

قوله تعالى : ﴿١٠﴾ كما بدأكم تعودون ﴿١١﴾ : أى كما خلقكم أول مرة تعودون يوم القيامة كقوله تعالى : ﴿١٢﴾ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴿١٣﴾ (٤) . وكقوله جل شأنه : ﴿١٤﴾ وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴿١٥﴾ (٥) .

والناس في العودة فريقان قال تعالى ﴿١٦﴾ فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ﴿١٧﴾ . فمن اتبع هدى

(٤) الآية ٩٤ من سورة الأنعام .

(٥) الآية ٤٨ من سورة الكهف .

(١) الآية ٣٥ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ٢ من سورة التوبة .

(٣) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

الله وسار على صراطه المستقيم وأخلص له الدين يعود يوم القيامة في زمرة السعداء ، فلا يضل ولا يشقى ومن يعيش عن ذكر الرحمن ويعرض عنه فإن له معيشة ضنكا ويعود في الآخرة كما قال الله تعالى : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ ^(١) ذلك لأنه حقت عليه الضلالة ، وما حقت عليهم الضلالة إلا أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله .

والشياطين هنا تشمل شياطين الإنس والجن ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ ^(٢) . لقد اتخذوهم أولياء فأحلوا لهم وحرّموا ، وزينوا لهم القبيح فرأوه حسناً ، فظلموا عباد الله وأضلّوهم . ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ﴾ لقد أضلّني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴿ وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴿ ^(٣) .

وقمة المأساة وذورة الضلال أن يسيء الإنسان ويحسب أنه على هدى قال تعالى : ﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ . قال جل شأنه : ﴿ قل هل تنبئكم بالآخسين أعمالاً ﴾ الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً ﴿ ^(٤) .

بيان وإرشاد

يَبْنِيءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾
قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

نداء من الله تبارك وتعالى إلى بني آدم الذين من الله عليهم بإنزال اللباس الذي يوارى السوءات واللباس الذي هو الزينة والجمال ، الذي سماه القرآن الكريم ريشاً ، نداء كريم من رب عظيم ، أمرهم فيه سبحانه أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد والمسجد هو كل مكان يسجد فيه لله رب العالمين ، كما تفيد اللغة . وسواء أكان الأمر بأخذ الزينة عند الصلاة أو عند قصد المسجد ، فإن ذلك أمر مرغوب فيه ، فإن الله تعالى جميل يحب الجمال ، فما بالك إذا كان التجمل لله وفي أسنى المواطن ، وقد شرع الله الغسل ،

(٣) الآيات ٢٧ - ٣١ من سورة الفرقان .

(٤) الآيات ١٠٣ - ١٠٦ من سورة الكهف .

(١) الآية ١٢٤ من سورة طه .

(٢) الآية ١١٢ من سورة الأنعام .

وأمر بالتجمل والنظافة [فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي ، وحق على المزور أن يكرم زائره] ^(١) كما جاء في الحديث القدسي .

وإن من سمات الإسلام أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، وقد قال رسول الله ﷺ « إن الله جميل يحب الجمال قال رجل يا رسول الله الرجل منا يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أهذا من الكبر ؟ قال رسول الله ﷺ الكبر غمط الناس وبطر الحق » ^(٢) .

وقد أرشد الرسول ﷺ أمته إلى أهمية النظافة فقال : « تنظفوا فإن بني إسرائيل لم يتنظفوا لنسائهم فزنت نساؤهم » .

ولما أمر الله عباده المؤمنين بأخذ الزينة عند كل مسجد أباح لهم الأكل والشرب في غير مخيلة أو سرف ، وفي هذه الآية الكريمة جمع الله الطب كله إذ يقول : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ .

قال أحد الزنادقة لأحد علماء المسلمين : إن كتابكم خلا من الطب فقال له العالم المسلم إن الله تعالى جمع الطب كله في نصف آية فقال : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ .

والناظر في كتاب الله جل وعلا يجد فيه الصحة الغذائية في مثل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ﴾ ^(٣) وقوله تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾ ^(٤) وقوله جل وعلا : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر ﴾ ^(٥) وقوله جل شأنه : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ .

كما يجد الصحة الوقائية في مثل قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع ﴾ ^(٦) . وقوله جل جلاله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ ^(٧) .

كما يجد الطب الاجتماعي في قوله جل شأنه ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ ^(٨) .

كما يجد الطب النفساني في قوله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ ^(٩) .

فهل ترك القرآن شيئا فيه مصالح العباد إلا أمر به ، أو شيئا فيه مفسدة إلا نهى عنه ألا يعلم من

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٢٨٢) . وابن ماجه في الإقامة (١٩٧) . والإمام أحمد في (٣ : ٣٩) وفي (٤ : ١٥٧) وفي (٥ : ١٧٧) .

(٢) أخرجه أبو داود في اللباس (٢٦) . والترمذي في البر (٦٠) . والإمام أحمد في (١ : ٣٨٥ ، ٤٢٧) .

(٣) الآية ١٦٨ من سورة البقرة . (٧) الآية ٩٠ من سورة المائدة .

(٤) الآية ٢٣٣ من سورة البقرة . (٨) الآية ٢١ من سورة الروم .

(٥) الآية ١٤١ من سورة الأنعام . (٩) الآية ٥٣ من سورة الزمر .

(٦) الآية ٣ من سورة المائدة .

خلق وهو اللطيف الخبير . إن للإنسان دوافع فطرية لا يستغنى عنها بشر منها . اللباس والطعام والشراب . وقد جاءت هذه الثلاثة في تلك الآية الكريمة . وللنبي ﷺ في هذه الأمور الثلاثة أحاديث نذكرها فيما يلي :

— قال رسول الله ﷺ : « ألبسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم وإن خير أحوالكم الإثم فإنه يجلو البصر وينبت الشعر » ^(١) .

— وقال رسول الله ﷺ : « عليكم بثياب البياض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب وكفنوا فيها موتاكم » ^(٢) .

— وقال صلى الله عليه وسلم : « كلوا واشربوا وألبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده » ^(٣) .

— وقال رسول الله ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه . حسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه فإن كان فاعلاً لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » ^(٤) .

— قال رسول الله ﷺ : « إن من السرف أن تأكل كل ما اشتيت » ^(٥) .

قوله تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ هو كقوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ ^(٦) .

والزينة ما دامت في غير سرف أو مخيلة فإنها من الأمور المباحات التي أنعم الله بها على عباده ، وكذلك الطيبات من الرزق . فإن الله تعالى بعث نبيه ﷺ بشرع هو للأمم المتحضرة كالأستاذ العظيم ، وللشعوب البدائية كالأب الرحيم بعثه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحل الطيبات ويحرم الخبائث ، يوحد العقائد ولا يفرق القواعد وقد انساب أصحابه في أرجاء الدنيا ينشرون العدل والحق والحرية يعملون على البناء ويقضون على معاول الهدم ، أطبوا المريض بدوائهم وأمنوا الخائف في رحابهم ، وقرأوا على الدنيا كتاب جهادهم . صمت أذن الدنيا إن لم تسمع لهم .

قوله تعالى : ﴿ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ . قال إبراهيم لربه : ﴿ رب اجعل هذا بلد آمناً ، وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾ ^(٧) .

وأراد إبراهيم أن يكون الرزق مقصوراً على المؤمنين ، لكن الحليم الكريم سبحانه ، قال : ﴿ ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ . ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ ^(٨) فإذا كان المؤمن وغير المؤمن يأكلون في

(١) أخرجه ابن ماجه في الجنائز (١٢) وفي اللباس (٥) . وأخرجه البخاري في اللباس (٢٤) . وأبو داود في الطب (١٤) وفي اللباس

(١٣) . وأخرجه الترمذي في الجنائز (١٨) . والنسائي في الجنائز (٣٨) . والإمام أحمد في (١ : ٢٤٧ ، ٢٧٤ ، ٣٢٨ ، ٣٥٥ ،

٣٦٣) وفي (٥ : ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٧ - ٢٠) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في اللباس (٥) .

(٣) أخرجه البخاري في اللباس (١) . والنسائي في الزكاة (٦٦) . وابن ماجه في اللباس (٢٣) . والإمام أحمد في (٢ : ١٨١ ، ١٨٢) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في الأطعمة (٥٠) . والترمذي في الزهد (٤٧) . (٧) الآية ١٢٦ من سورة البقرة .

(٥) أخرجه ابن ماجه في الأطعمة (٥١) . (٦) الآية ٨٧ من سورة المائدة . (٨) الآية ٦ من سورة هود .

الدنيا من رزق الله ، فإن الطيبات من الرزق خالصة للذين آمنوا في دار النعيم إذ أن غير المؤمنين قد حرم الله عليهم الجنة ومأواهم النار وما للظالمين من أنصار .

قوله جل شأنه : ﴿ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أى مثل هذا التفصيل الذى سبق نبين الأحكام ونوضحها توضيحاً لقوم يعلمون ، فالعلم نور وضياء جبذا إذا كان علماً نافعاً مقترناً بالعمل الصالح ، اللهم إنا نسألك علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وشفاءً من كل داء ، ونعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع .

المحرمات

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

المفردات : ﴿ الفواحش ﴾ : واحدها فاحشة، وهى الخصلة التى يقبح فعلها لدى أرباب الفطر السليمة والعقول الراجحة ، ويطلقونها أحياناً على الزنا والبخل والقذف بالفحشاء والبذاء المتناهى فى القبح . ﴿ والإثم ﴾ : لغة القبيح الضار ، وهو شامل لجميع المعاصى كبائرها كالفواحش وصغائرها كالنظر بشهوة لغير الحليلة . ﴿ والبغى ﴾ : تجاوز الحد : وقد قالوا : بغى الجرح ، إذا تجاوز الحد فى الفساد ، ومنه قوله تعالى ﴿ فلما أنجاهم إذا هم ييغون فى الأرض بغير الحق ﴾ (١) .

لما لبس المسلمون الثياب وطافوا بالبيت غيرهم المشركون بذلك فقال الله : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين حرموا ما أحل الله من الطيبات والرزق واللباس ما حرم ربي هذا ، وإنما حرم الفواحش وما قبح جرمها كالزنا ما ظهر منه وما بطن ، وإذاعة السوء ، وخيانة الوطن ، والخروج على الجماعة ، وهكذا كل ذنب يكون خطره جسيماً ، وكذا حرم الإثم الذى يوجب الذنب ، وحرم البغى وتجاوز الحقوق وقيد البغى بغير الحق ، لأن التجاوز إذا كان للمصلحة ومع التراخى فلا شئ فيه . وحرم الإشراك بالله غيره من صنم أو وثن لم ينزل به سلطاناً وحجة ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه ﴾ (٢) .

وحرم كذلك أن تقولوا على الله ما لا تعلمون أى بغير علم ولا حجة ، والقول على الله وعلى دينه يكون بتحليل حلال أو تحريم حرام بلا سند ولا حجة ، وهو القول بالرأى ، وهذا منشأ تحريم الأديان ، واتباع الهوى والشيطان ، كما فعل أهل الكتاب ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام ﴾ (٣) بل علينا ألا نتخطى أصول الدين من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس وهذه الأصول لم تترك شيئاً .

(٣) الآية ١١٦ من سورة النحل .

(١) الآية ٢٣ من سورة يونس .

(٢) الآية ١١٧ من سورة المؤمنون .

لكل أمة أجل

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٢٤﴾

المفردات : ﴿أجل﴾ : وقت مضروب الله أعلم به . ﴿ساعة﴾ : أقل وقت يمكن فيه قضاء عمل من الأعمال .

لكل أمة أجل محدود ووقت مضروب يعلمه الله سبحانه ، وتنتهى عنده ، كما أن لكل شيء في الوجود أجلا كذلك ، فلكل أمة زمان معلوم ، نكون فيه سعيدة عزيزة أو شقية ذليلة .

فكرة الأمم وسعادتها تكون بامثال الشرع وذيوع الفضيلة .

والتمسك بأهداب الدين والمثل العليا ولها في ذلك أجل محدود .

وشقاء الأمم وذلها يكون ببعدهم عن الفضيلة ، وذيوع الرذيلة وشيوع الغش والرشوة والفساد والإسراف والظلم والإثم والبغى ، ولها في ذلك أجل محدود .

أما فناء الأمم وهلاكها بالإبادة لمخالفتها الشرع فانتهى ببعثه الرسول ﷺ ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾^(١) .

وقد جرت سنته تعالى بذلك مع جميع الأمم فنرى في أمم الغرب أمة قوية عزيزة ، لأنها تتسمك بالفضيلة والاعتدال وعدم الإسراف ، ولها أجل محدود ما دامت متمسكة بالحق ، وبجانبا أمة ذليلة مهينة لأنها تتمسك بالرذيلة والإسراف ، والأمة الإسلامية أولى بالتمسك بالمثل العليا وعدم الإسراف ومجاوزة الحد في شيء ، وبخاصة وأن دينها يأمرها بهذا والله سبحانه وتعالى إذا قضى على أمة بالفناء في ساعة لا تتقدم ولا تتأخر أصلا فهذا تهديد ووعد لمن يخالف الأمر ويسير على غير هدى .

مهمة الرسول وعاقبة العمل

يَبْنِيءَ آدَمَ إِمَامًا يَا تَبْنِيءُكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَتِي فَمَنْ أَتَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

يا بنى آدم إن تأتيكم رسل منكم تعرفونهم ، ويمكنكم الحكم على أعمالهم ، يقضون عليكم آياتي

ويتابعونها آية بعد آية ، مبشرين ومنذرين ، داعين إلى الفضيلة ، ناهين عن الرذيلة ، وهذه هي مهمة الرسل قديماً وحديثاً ، فمن اتقى وأصلح نفسه بالعمل والنية الصادقة فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا ورفضوها كبراً وعناداً واستكباراً عن الحق ، وعتوا كما فعل زعماء قريش أولئك هم أصحاب النار فيها خالدون ، وما كثون مكثاً الله أعلم به .

عاقبة الكذب على الله مع

ذكر مشهد من مشاهد

يوم القيامة

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ تَهُم رُسُلُنَا يَتَوَقَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِنَهُمْ لِأُولَٰئِهِمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَعَاتِبِهِمْ عَذَابًا ۖ ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَتْ أُولَٰئِهِمْ لِأُخْرِنَهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٩﴾

المفردات : ﴿ ادركوا ﴾ : تلاحقوا وادرك بعضهم بعضاً واجتمعوا . ﴿ ضِعْفًا ﴾ : هو المثل الزائد على مثله مرة أو مرات .

لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً ، واختلق زوراً وبهتاناً ، بأن حرم حلالاً ، أو حلل حراماً ، أو نسب إليه ولداً أو شريكاً ، أو كذب بآياته واستكبر عنها واستهزأ بها .

أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب المكتوب ، والقدر المقدور ، في الرزق والعمر والمتاع في الدنيا والحظ ، حتى إذا جاءتهم ملائكة الموت متوفين لهم قابضين لأرواحهم قالوا لهم : تأنيباً وتوبيخاً : أين ما كنتم تدعونهم من دون الله من الشركاء والشفعاء ، قالوا ضلوا عنا وغابوا ، لا ندرى مكانهم ، ولا نرى أثرهم ، فنحن لا نرجو منهم خيراً ولا نفعاً ، وشهدوا على أنفسهم ، واعترفوا عليها بأنهم كانوا بعبادتهم ودعائهم لهم كافرين .

وهذا تحذير للكافرين الموجودين من عواقب الكفر والضلال يقول الله تعالى يوم القيامة لأولئك

الظالمين المكذبين بآيات الله وهم كفار العرب ادخلوا مع أمم قد سبقتمكم في الكفر ، وفي دخول النار وهم أولياؤكم من الجن والإنس .

﴿ كلما دخلت ﴾ جماعة ورأت ما حل بها من الخزي والنكال ﴿ لعت أختها ﴾ في الدين والملة ، إذ هي قد ضلت باتباعها ، والامتداد بكفرها حتى إذا تداركوا في النار جميعاً . واجتمعوا قالت أخرهم في الدخول وهم الأتباع والسفلة لأولاهم أى في شأنهم وحققهم ، وهم السادة والزعماء قالوا مخاطبين الله ﴿ ربنا هؤلاء ﴾ أى السادة ﴿ أضلونا ﴾ وأثروا علينا فآتهم ضعفاً من عذاب النار ، لإضلالهم لنا زيادة على عذاب ضلالهم في أنفسهم .

قال الله لهم : لكل منكم ضعف من العذاب بإضلاله فوق العذاب على ضلاله ، ولكنكم لا تعلمون عذابهم .

وقالت أولاهم لأخرهم : إذا كان الأمر كما ذكرتم من أننا أضللناكم فما كان لكم علينا من أدنى فضل تطلبون به أن يكون عذابكم دون عذابنا ، فيقول الله لهم ذوقوا جميعاً العذاب كاملاً ، بما كنتم تكسبون

جزاء الكافرين

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿١٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾

المفردات : ﴿ الجمل ﴾ : البعير الذى طلع نابه . ﴿ سم الخياط ﴾ : ثقب الإبرة . ﴿ المجرمين ﴾ : أجرم قطع الثمرة من الشجرة ثم استعمل في كل إفساد . ﴿ مهاد ﴾ : فراش . ﴿ غواش ﴾ : جمع غاشية وهى ما يغطي الشيء أى يغطيه كاللحاف .

إن الذين كذبوا بآياتنا الدالة على الوحدانية والبعث ، وعلى صدق الرسول ، مع بيانها للأحكام ولأصول الدين ، إن الذين كذبوا بها واستكبروا عنها لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء ، ولا تصعد إليها أعمالهم ، فإنها هباء منثور لا خير فيه .

﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ (١) .

ولا يدخلون الجنة أبدا ، فهم مطرودون من رحمة الله ، ومثل ذلك الجزاء يجزى به كل من أجرم في حق الله ، وفي خلق نفسه ، وفي حق إخوانه من المسلمين .

لهؤلاء من نار جهنم فراش يفترشونه ، ولحاف يلتحفون به ، فهم والعياذ بالله بين طبقات جهنم ماكنون ، وهى محيطة بهم ، والله محيط بأعمالهم وبئس المصير مصيرهم ، ولا غرابة فى ذلك كذلك نجزى الظالمين .

جزاء المؤمنين

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

المفردات : ﴿ وسعها ﴾ : طاقتها وما تقدم عليه حال السعة والسهولة . ﴿ نزعنا ﴾ : قلعنا . ﴿ غل ﴾ : حقد وحسد . ﴿ أورثتموها ﴾ : صارت إليكم كما يصير الميراث إلى صاحبه .

هذا وعد ربك بالحق بعد ما أوعد الكافرين ، وهكذا نظام القرآن وعد ووعد ، ليميز الحق من الباطل ، والمؤمن من الكافر .

والذين آمنوا بالله ورسله وعملوا العمل الصالح الذى ارتضاه ربهم لهم ، أولئك الموصوفون بما ذكر من معانى الكمال والصدق ، المشار إليهم ، المتميزون لعلو درجتهم ، هم أصحاب الجنة الملازمون لها ، وهم فيها خالدون وقد جاء قوله تعالى ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ بين العمل وجزاءه على سبيل الاعتراض ، للإشارة إلى أن هذا العمل الصالح الذى يستحق صاحبه دخول الجنة ، ليس شاقاً ولا فوق طاقة البشر ، بل هو عمل سهل فى متناول اليد ، متى حل فى قلب الإنسان نور الإيمان ، وهدى القرآن ، هم فى الجنة خالدون ، لا يحزنهم الفرع الأكبر ، ولا يكدرهم كدر ، ولا يؤلمهم ألم .

وليس بينهم شر ، لأن الله نزع ما فى صدورهم من حسد وعداوة وغل وحقد ، وهكذا نعيم الجنة : أكلها دائم ، وظلها كذلك ، وفيها الأنهار تجري من تحتهم ، فيرونها تفيض بالماء وهم فى غرفاتهم آمنون ، فيزدادون حبوراً وسروراً ، وقالوا شاكرين نعمه : الحمد لله الذى هدانا لهذا العمل حتى أخذنا ذلك الثواب ، وما كان من شأننا ولا من مقتضى تفكيرنا أن نهتدى إليه بأنفسنا لولا أن هدانا الله ، ووفقنا لاتباع الرسل .

وقالوا لما رأوا كل شيء يجري على حسب ما أخبر به الرسل ، لقد جاءت الرسل بالحق ، وصدقنا الله وعده في الدنيا ، وهذه الملائكة تناديهم ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾^(١) .

فهذه هي الجنة التي أورشتموها ، وصارت لكم كما يصير الميراث جزاء أعمالكم .

وفي الآية دليل على أن الانسان يدخل الجنة بعمله ، وفي الحديث لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضله ورحمته .

والمخرج من هذا أن عمل الإنسان مهما كان لا يستحق به ذلك النعيم الواسع العريض ، لولا رحمة الله وفضله ، ومن ثم قيل في الحديث ﴿ فسددوا وقاربوا ﴾ أى لا تبالغوا . والله أعلم .

حوار بين أهل الجنة والنار وأصحاب الأعراف

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ^(١) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ^(٢) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ^(٣) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(٤)

المفردات : ﴿ فأذن ﴾ : الأذان والتأذين رفع الصوت بالإعلام . ﴿ لعنة الله ﴾ : اللعن الطرد من الرحمة مع الإهانة . ﴿ عوجا ﴾ : ذات عوج أى غير مستقيمة ولا مستوية . ﴿ حجاب ﴾ : سور بين الجنة والنار . ﴿ الأعراف ﴾ : جمع عرف مأخوذ من عرف الديك والفرس ويطلق على أعلى الشيء وكل مرتفع . ﴿ بسيماهم ﴾ : السيماء والسيماء العلامة . ﴿ صرفت ﴾ : حولت .

هذا فريق في الجنة وهذا فريق في النار ، وقد حصل بينهما حوار حكاه القرآن إظهاراً للحق ، وإعلاناً عن خطر الكفر والإيمان ، وبياناً لعاقبة كل .

وما نراه الآن من مخترعات يغنيان عن الكلام في كيفية سماع الكلام ، ورؤية الأشخاص ، مع البعد في المكان فالله على كل شيء قدير .

نادى أصحاب الجنة قائلين يا أصحاب النار ، يا أهل الكفر والفسوق والعصيان والضلال

والبهتان : إن الحال والشأن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، ولقد جاءت رسل ربنا بالحق ، وصدق الله وعده ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من العذاب والألم ؟

هل وجدتموه حقاً ؟ قالوا : نعم وجدنا ما وعدنا ربنا على الكفر ، فهذه هي النار تتميز غيظاً ، وتقول هل من مزيد ؟

فأذن مؤذن بينهم بحيث سمع صوته أصحاب النار ، وأصحاب الجنة أذن قائلًا .

ألا لعنة الله على الظالمين ، الذين ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان ، وهم الذين يصدون عن سبيل الله بغيا وعدوانا ، ويطلبونها معوجة غير مستقيمة حتى ينفر الناس منها ، ويتعدوا عنها ، وهم بالآخرة كافرون .

وبين أهل الجنة وأهل النار سور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، وعلى أعالي ذلك السور رجال يرون أهل الجنة وأهل النار ، ويعرفون كلاً بعلامة ﴿ ووجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قفرة * أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾^(١) .

هؤلاء الذين على الأعراف رجال موحدون ، قصرت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار ، وقفوا هناك حتى يقضى الله فيهم ، ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة أن سلام عليكم طبتم ، فنعم أجر العاملين ، وهم لم يدخلوا ، أي الجنة ، ولكنهم يطعمون فيها ، فهم بين الخوف والرجا . وإذا صرفت أعين أصحاب الأعراف من النظر إلى أهل الجنة ، إلى النظر إلى أهل النار من غير قصد ، قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين .

حوار بين أصحاب الأعراف وأصحاب النار

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا لَا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

هذا حوار بين أصحاب الأعراف وبين أهل النار ، فأصحاب الأعراف ينادون رجلاً من أهل النار وقد عرفوهم بسيماهم قال تعالى : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾^(٢) وقال جل شأنه : ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قفرة * أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾^(٣) .

(١) الآيات ٣٨ - ٤٢ من سورة عبس .

(٢) الآية ٤١ من سورة الرحمن .

(٣) الآيات ٤٠ ، ٤٢ من سورة عبس .

وقال عز من قائل : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾^(١).

إنهم سود الوجوه ، زرق العيون ، قال سبحانه : ﴿ يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً ﴾^(٢).

إن أصحاب الأعراف قد عرفوا هؤلاء الجبابرة الطغاة الظلمة بتلك العلامات ، فقالوا لهم موبّخين : ﴿ ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ﴾.

أى هل أغنى عنكم جمعكم شيئاً ، لقد تجمعتم ضد الحق وتعصبتم للباطل ، وحشدتم للإسلام ونبيه وأتباعه كل ما تملكون من قوة ، فجيّشتم الجيوش ، وجمعت الأموال ، فهل أغنى كل ذلك شيئاً : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ * ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم ﴾^(٣).

وهل أغنى عنكم استكباركم عن قبول الحق ، لقد أعماكم الكبر ، ووضع على أعينكم غشاوة حتى زين الشيطان لكم سوء أعمالكم ، فرأيتم القبيح حسناً ، والضلالة هدى ، فهل أغنى جمعكم وكبركم شيئاً كلا ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله ﴾ فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابه * يا ليتها كانت القاضية * ما أغنى عنى ماله * هلك عنى سلطانيه ﴾^(٤).

ثم نظر أهل الأعراف إلى الذين كانوا مستضعفين في الأرض ، أمثال بلال وعمار وصهيب وخباب ، وقالوا لأهل النار : ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ﴾ فقد كان المستكبرون يظنون أن من حرم المال في الدنيا والجاه والقوة فسيحرم يوم القيامة من دخول الجنة ، حتى قال أحدهم وقد دخل جنته في الدنيا ﴿ ما أظن أن تبعد هذه أبداً ﴾ وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾^(٥).

وكان هذا منهم جهلاً بحقائق الأمور ، لأن الله تعالى لا يعبأ بصورنا وأموالنا ، إنما بقلوبنا وأعمالنا ، قال سبحانه : ﴿ يأأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾^(٦).

فليس الغنى ميزاناً للعمل ، وليس الفقر ميزاناً للعمل ، إنما الميزان الصحيح هو تقوى الله ، قال تعالى : ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ﴾^(٧).

(١) الآية ٦٠ من سورة الزمر . (٣) الآيات ٣٦ ، ٣٧ من سورة الأنفال . (٥) الآيات ٣٥ ، ٣٦ من سورة الكهف .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة طه . (٤) الآيات ٢٥ - ٣٠ من سورة الحاقة . (٦) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٧) الآيات ١٠١ - ١٠٣ من سورة المؤمنون .

إن الله تعالى أعد الجنة لكل طائع ولو كان عبداً حبشياً ، وأعد النار لمن عصاه ولو كان حراً قرشياً : ﴿أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمت ربك خير مما يجمعون﴾ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكثون * وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين * ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴿^(١)﴾ .

وبعد أن ينتهى هذا الحديث الموجه من أصحاب الأعراف إلى أهل النار ، يقال لأهل الأعراف : أدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .

قال حذيفة : (إن أصحاب الأعراف قوم تكاثفت أعمالهم ، فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة ، وقصرت بهم سيئاتهم عن النار ، فجعلوا على الأعراف ، يعرفون الناس بسيماهم ، فلما قضى الله بين العباد أذن لهم في طلب الشفاعة ، فأتوا آدم فقالوا : يا آدم أنت أبونا فاشفع لنا عند ربك . فقال : هل تعلمون أن أحداً خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وسبقت رحمته إليه غضبه ، وسجدت له الملائكة غيرى ؟ فيقولون : لا . فيقول : ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا ابنى إبراهيم . فيأتون إبراهيم عليه السلام فيسألونه أنه يشفع لهم عند ربهم ، فيقول : هل تعلمون من أحد اتخذ الله خليلاً ؟ هل تعلمون أن أحداً أحرقه قومه بالنار في الله غيرى ؟ فيقولون : لا . فيقول : ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا ابنى موسى .

فيأتون موسى عليه السلام فيقول : هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليماً ، وقربه نجياً غيرى ؟ فيقولون : لا . فيقول : ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا عيسى .

فيأتون عيسى عليه السلام فيقولون له : اشفع لنا عند ربك . فيقول : هل تعلمون أحداً خلقه الله من غير أب ؟ فيقولون : لا . فيقول : هل تعلمون من أحد كان يرى الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله غيرى ؟ قال : فيقولون : لا . فيقول : أنا حجيج نفسى ، ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم .

فيأتونى فأضرب يدي على صدرى : ثم أقول : أنا لها . ثم أمشى حتى أقف بين يدي العرش ، فأتى ربي عز وجل ، فيفتح لى من الشاء ما لم يسمع السامعون بمثله . قط ، ثم أسجد . فيقال لى : يا محمد ارفع رأسك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسى ، ثم أثنى على ربي عز وجل ، ثم أخرج ساجداً ، فيقال لى : ارفع رأسك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسى . فأقول : ربي أمتى . فيقول : هم لك ، فلا يبقى نبي مرسل ، ولا ملك مقرب ، الا غبطنى بذلك المقام ، وهو المقام المحمود .

فأتى بهم الجنة ، فاستفتح فيفتح لى ولهم ، فيذهب بهم إلى نهر يقال له نهر الحيوان حافته قصب مكلل باللؤلؤ ، ترابه المسك ، وحصياؤه الياقوت ، فيغتسلون منه ، فتعود إليهم ألوان أهل الجنة ، وريح أهل الجنة ، فيصرون كأنهم الكواكب الدرية ، ويبقى في صدورهم شامات بيض يعرفون بها ، يقال مساكين أهل الجنة (١).

بين أصحاب النار وأصحاب الجنة

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسُوهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥٢﴾

سأل ابن عباس أى الصدقة أفضل فقال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصدقة الماء ، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا : أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » (٢).

وقد أخبر الله تعالى عن ذلة أهل النار وما سيكونون عليه من سوء المآل ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (٣).

أنهم سينادون على أهل الجنة يسألونهم الماء والطعام ، فيقول لهم أهل الجنة : ﴿ إن الله حرّمهما على الكافرين ﴾ لقد كانوا فى الدنيا لا يرجون حساباً ، وكذبوا بآيات الله كذاباً ، فكان جزاؤهم أن يقال لهم ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ وأن يقال لهم : ﴿ إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً ﴾ (٤).

وأن يقال لهم : ﴿ إن شجرت الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلي فى البطون * كغلي الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ (٥).

وأن يقال لهم : ﴿ خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه * إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين * فليس له اليوم ههنا حميم * ولا طعام إلا من

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ١٧ : ١٩) وفى الجمعة (٦٣) وفى القيامة (١٠) . والبخارى فى التوحيد (١٩ ، ٢٤ ، ٣٦)

وفى الرقاق (٥١) وفى الأنبياء (٣) وفى تفسير (سورة ١٧ : ٥) . ومسلم فى الإيمان (٣٢٢ ، ٣٢٧) . وأبو داود فى الجهاد

(١١٤) . والنسائى فى السهو (٤٨) . وابن ماجه فى الزهد (٣٧) . والدارمى فى السير (٢٨) . والامام أحمد فى (٢ : ١٧٢ ،

٤٣٦ ، ٤٥٢) وفى (١٥ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ٣٩٣) .

(٤) الآية ٢٩ من سورة الكهف .

(٢) أخرجه أبو داود فى الزكاة (٤١) .

(٥) الآيات ٤٣ - ٤٩ من سورة الدخان .

(٣) الآية ٢٧ من سورة يونس .

غسلين * لا يأكله إلا الخاطئون ﴿١﴾ ﴿٢﴾ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴿٣﴾ ﴿٤﴾ هذا نزلهم يوم الدين ﴿٥﴾ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿٦﴾

إن هؤلاء الذين حرموا نعيم الجنة ، اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، وغرتهم الحياة الدنيا ، فما أقاموا للدين وزناً ، ولا للشرع غبرة ، بل كانوا كما قال تعالى : ﴿٧﴾ ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون * قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسئوا فيها ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادي يقولون * ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون ﴿٨﴾

إن هؤلاء الذين غرتهم الحياة الدنيا بزخرفها ومتاعها ، جهلوا أن الدنيا مزرعة للآخرة . وما الإنسان فيها إلا وديعة ، ولا بد يوماً أن ترد الوديعة ، وأن ميت الغد يشيع ميت اليوم ، فلا طمأنينة لدنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ﴿٩﴾ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴿١٠﴾

وقال عز وجل : ﴿١١﴾ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿١٣﴾ فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون .

أى يعاملهم معاملة من نسيتهم ، لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه ، كما قال تعالى : ﴿١٤﴾ في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴿١٥﴾ وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله : ﴿١٦﴾ نسوا الله فنسيهم ﴿١٧﴾ وقوله : ﴿١٨﴾ كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴿١٩﴾ وقال تعالى : ﴿٢٠﴾ وقيل اليوم ننسأكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴿٢١﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا .

وقال مجاهد : نتركهم في النار .

وقال السدى : نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا .

وفى الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : [ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك

- | | | | |
|-----|---------------------------------|------|-------------------------------------|
| (١) | الآيات ٣٠ - ٣٧ من سورة الحاقة . | (٥) | الآيات ١٠٥ - ١١١ من سورة المؤمنون . |
| (٢) | الآية ٤٠ من سورة النساء . | (٦) | الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة هود . |
| (٣) | الآية ٥٦ من سورة الواقعة . | (٧) | الآيتان ٧ ، ٨ من سورة يونس . |
| (٤) | الآية ١٨٢ من سورة آل عمران . | (٨) | الآية ٥٢ من سورة طه . |
| | | (٩) | الآية ٦٧ من سورة التوبة . |
| | | (١٠) | الآية ١٢٦ من سورة طه . |
| | | (١١) | الآية ٣٤ من سورة الجاثية . |

الخيول والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى . فيقول : أظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا . فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتني [(١)] .

قيام الأدلة عليهم

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

المفردات : ﴿ بكتاب ﴾ : المراد القرآن . ﴿ فصلناه ﴾ : بيناه أتم بيان . ﴿ تأويله ﴾ : ما يؤول إليه أمره أى عاقبته .

يقطع الله المعاذير على العباد ، فقد أرسل إليهم رسلاً ، وأنزل إليهم كتاباً ، وأمدهم بالعقل الذي يميزون به الخبيث من الطيب ، والهدى من الضلال ، فقد جاء الكتاب مفصلاً على علم لا جهل فيه ، وبيان لا خفاء فيه ، ووضوح لا لبس فيه ، جاء هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، إذ هم الذين يستفيدون بما فيه ، فيترجمونه إلى عمل ، وهل الإيمان إلا ما وقر في القلب وصدقه العمل ؟ وإن قوماً غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

إن هذا الكتاب المبين جاء هادياً ، مشتملاً على النذارة والبشارة : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ . ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير ﴿ (٢) ﴾ .

لقد اهتدى به أهل الإيمان فزادهم الله هدى ، أما الذين اتخذوا دينهم هواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فلم ينتفعوا به ، وأعرضوا عن ذكر الله فصاروا لا ينتظرون إلا تأويل هذا الكتاب . أى ما تؤول إليه أحكامه ، وما اشتمل عليه من الوعد والوعيد ، والجنة والنار ، والمراد بتأويله عاقبة ما يصير إليه ، وإنما يكون ذلك يوم القيامة ﴿ يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ (٣) .

وذلك عندما يأتهم اليقين ، وتصير الحقائق شاخصة أمامهم ، لا تحتمل لبساً ولا غموضاً ، فتلک هي الجنة دار المتقين ، وهذه هي النار التي كانوا بها يكذبون .

(١) أخرجه مسلم في الزهد (١٦) .

(٢) الآيتان ٢٠١ ، ٢٠٢ من سورة هود .

(٣) الآية ٥٣ من سورة الأعراف .

فيقال لهم : ﴿ أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾^(١) عندئذ يعضون على أيديهم ندماً ، ويقولون : ﴿ هل : لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ قال سبحانه : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾^(٢) وقال عز من قائل : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور * وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾^(٣).

وتأتي كلمة الفصل من الحكم العدل ﴿ قد خسروا أنفسهم ﴾ بدخولهم النار والخلود فيها ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ، أى غاب عنهم وبعد الذين زعموهم شركاء وشفعاء ، ﴿ لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾^(٤).

صور من عظمة الخالق

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي
الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ
وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾

المفردات : ﴿ ربكم ﴾ : الرب السيد المالك والمربى . ﴿ الله ﴾ : علم الذات الأقدس والإله هو المعبود الذى منه النفع والضرر ويتقرب إليه بالعبادة والدعاء وليس للموحددين إله إلا الله . ﴿ أيام ﴾ : جمع يوم وهو الوقت المحدود بطلوع الشمس إلى غروبها . ﴿ استوى ﴾ : في اللغة بمعنى استقر ومنه استوى على الكرسي وعلى ظهر الدابة أى استقر . استوى بمعنى قصد واستوى بمعنى استولى وظهر والمراد يتصرف فيه بما يريد^(٥) . ﴿ العرش ﴾ : قال الجوهري هو سرير الملك . ﴿ نكروا لها عرشها ﴾ : والعرش سقف البيت وهودج المرأة وقيل العرش الملك والسلطان ومنه ثل عرشه إذا ذهب ملكه ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ : يجعل الليل كالغشاء أى يذهب نور النهار . ﴿ حثيثاً ﴾ : الحث والحض . بمعنى واحد وهو الإعجال والسرعة والمعنى يطلبه من غير فتور .

إن ربكم ومالك أمركم ومتولى شئونكم هو الله لا إله إلا هو ، فاعبدوه وحده ، واستعينوا به وحده ، فهو الذي خلق السموات وعوالمها ، وقدرها ، وأحكم نظامها ، وخلق الأرض ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها ، وقدر أقواتها ، وأحكم نظامها ، كل ذلك في ستة أيام الله أعلم بمقدارها

(٤) الآية من سورة الأنعام .

(٥) انظر مذهب السلف في معنى كلمة استوى وهو

المذهب الحق ولن يجوز العدول عنه انظر ص ١٨٨

(١) الآية ١٥ من سورة الطور .

(٢) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة الأنعام .

(٣) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة فاطر .

وحدودها ﴿ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾^(١) .

ولو أراد خلقها في لحظة لخلقها ﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾^(٢) ولكنه ذكر هذه المدة ليعلم العباد التآني والثبت في الأمور ، وأن خلق السموات والأرض ليس بالشئ الهين ﴿ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾^(٣) .

وما ورد من أن الأيام الستة هي كأيام الدنيا ، وأنه بدئ الخلق يوم الأحد ، فروايات الله أعلم بها ، وأنها إسرائيليّات .

إن ربكم أيها الناس جميعاً الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ودبر أمورها وحده ، فيجب عليكم أن تعبدوه وحده ، ثم إنه تعالى قد استوى على عرشه واستقام أمره ، واستقر على هيئة الله أعلم بها ، مع البعد عن مشابهة الحوادث في شيء .

ولقد سئل مالك رضي الله عنه في ذلك فقال : الاستواء معلوم ، أي في اللغة - والكيف - أي كيفية الاستواء - مجهول والسؤال عن هذا بدعة .

وهذا القدر كاف ، وهذا رأى الصحابة . رضي الله عنهم أجمعين ، ورأى السلف ، قبول ما جاء من غير تكيف ولا تشبيه ، وترك معرفة حقيقتها إلى الله .

وأما الخلف فيؤولون ويقولون : استوى على عرشه بعد تكوين خلقه على معنى أنه يدير أمره ويصرف نظامه على حسب تقديره وحكمته ﴿ إِنْ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَدِيرُ الْأَمْرَ ﴾^(٤) .

والله سبحانه جعل الليل يغشى النهار بظلمته ويستتره بلباسه حتى يذهب نور النهار ، ليتم قوام الحياة ، فالليل للسكون ، والنهار للمعاش ، والليل يطلب النهار دائماً من غير فتور مع الإعجال والسرعة .

وخلق الشمس والقمر والنجوم التي لا يعلمها إلا الله ، حالة كونها مسخرات ومذللات بأمره ، كل يدور في فلكه إلى أجل مسمى عنده ، ألا له الخلق ، أي المخلوقات كلها كبيرها وصغيرها ، فلا دخل لهذه الكواكب في شيء ، وله الأمر والنهي والتصريف والتدبير ، ليس لأحد دخل في شيء سبحانه وتعالى عما يصفون ، وتبارك الله رب العالمين .

من آداب الدعاء

أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا

(٣) الآية ٥٧ من سورة غافر .

(٤) الآية ٣ من سورة يونس .

(١) الآية ٤٧ من سورة الحج .

(٢) الآية ٨٢ من سورة يس .

وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

المفردات : ﴿تضرعاً﴾ : التضرع التذلل وإظهار الخضوع . ﴿خُفْيَةً﴾ : الخفية ضد العلانية . ﴿خَوْفًا﴾ : هو توقع الشر والمكروه . ﴿طَمَعًا﴾ : هو توقع الخير .

ادعوا ربكم الذى تعهدكم وأنعم عليكم نعمه التى لا تحصى ، وبخاصة ما مضى فى الآية السابقة . ادعوه متضرعين مبتهلين . مخلصين ، فالدعاء مخ العبادة ، ادعوه مخفين الدعاء متسترين ، فالإخفاء حسن مندوب إن لم يكن واجباً ، إذ هو أبعد عن الرياء والسمعة ، وأنت لم تدع غائباً أو ناسياً ، فالله أقرب إلينا من حبل الوريد ، وهو السميع البصير .

على أن الله مدح العبد الصالح زكريا فقال : ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ ^(١).

وقد كان دعاء الصحابة وعملهم فى الخفاء ، إنه لا يجب المعتدين المتجاوزين الحدود المرسومة خصوصاً فى الدعاء ، فمن رفع صوته للرياء ، أو بالغ فى الصيغة ، أو طلب غير المشروع ، أو دعا غير الله مهما كان ، فالدعاء عبادة يجب أن يكون لله كل هذا عدم تجاوز فى حدود الدعاء .

ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، بما خلق فيها ، وما هدامكم إلى الانتفاع بها وتسخيرها . والإفساد فى الأرض شامل لإفساد النفوس بالقتل . والاعتداء ، وإفساد المال بالسرقة والنصب ، وإفساد الدين بالكفر والمعاصي ، وإفساد العقل بالمسكرات .

ادعوه خائفين من عقابه ، متوقعين مكروهاً من عذابه ، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . وادعوه طامعين فى ثوابه ، مؤملين فى جزائه ، إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ ^(٢).

من أدلة البعث

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾
وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِثًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

(١) الآية ٣ من سورة مريم .

(٢) الآية ٣١ من سورة النجم .

المفردات : ﴿الرياح﴾ : جمع ريح ولها أسماء عند العرب وإذا جمعت كانت في معنى الخير وإذا أفردت كانت في معنى الشر كما في قوله تعالى ﴿فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً﴾^(١) ﴿بشراً﴾ : مبشرات ﴿أقلت﴾ : حملت ﴿البلد﴾ : الموضع من الأرض عامراً كان أو خلاء ﴿الثمرات﴾ : واحده ثمرة وهي الحمل الذي تخرجه الشجرة ﴿نكد﴾ : لا خير فيه ﴿نصرف﴾ : تغير وتبدل

هذا أثر من آثار رحمة الله بالخلق ، ودليل على قدرته على البعث ، إن ربكم هو الذي يرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته ، بقدوم المطر ، والمطر رحمة من الله بالخلق ، حتى إذا حملت الرياح سحاباً ثقالاً بالماء ، سقناه إلى بلد ميت لا ماء فيه ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به أنواع الثمار على اختلاف أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها ، مثل الإخراج وإيجاد أنواع النبات والثمار من الأرض بعد نزول المطر ، نخرج الموتى ونبعثهم ، فالله قادر على كل شيء يخرج الحي من الميت ، والميت من الحي ، فانتبهوا رجاء أن تتذكروا ، وتتعضوا ، فتؤمنوا بالبعث والحياة الآخرة .
مع هذا فهناك من ينكر البعث بعد ظهور أماراته ، لا غرابة في ذلك ، فالناس في الفهم والإدراك كالأرض ، منها طيبة طاهرة المعدن تخرج نباتاً حسناً ، ومنها خبيثة التربة كالأرض السبخة ، أو الحجرية ، لا تخرج نباتاً حسناً ، بل نباتها لا خير فيه ، مثل ذلك التصريف البديع يصرف الله الآيات لقوم يشكرون النعم .

قصة نوح عليه السلام

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالُّةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبْلِغُكُمْ رَسُولِي رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

المفردات : ﴿عذاب يوم﴾ : المراد به يوم القيامة ﴿الملأ﴾ : أشرف القوم ورؤسائهم لأنهم يملأون العيون بهجة ورواء ﴿ضلال﴾ : الضلالة والضلال العدول عن طريق الحق والذهاب عنه ﴿وأنصح﴾ : أرشد إلى المصلحة مه حسن النية ﴿ذكر﴾ : أى وعظ من ربكم ﴿الفلك﴾ : السفينة ﴿عمين﴾ : واحده عم ، وهو ذو العمى ، قيل المراد عمى البصيرة ، وقيل هو عام .

أنهى الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة الكلام عن مظاهر القدرة والوحدانية ، ثم ختم الكلام بذكر البعث ، وأنه كالخلق الأول .

ثم قفى على ذلك بذكر قصص الأنبياء السابقين ، وكيف لاقوا من أمهم العنت والتكذيب ، وكيف آل أمر هذه الأمم ، وفي هذا عبرة وعظة لأمة محمد ﷺ ، وتسكين للنبي الكريم ﷺ ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ ^(١) ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ ^(٢) .

أقسم الله سبحانه وتعالى لأهل مكة بأنه أرسل نوحاً إلى قومه ، ونوح هو النبي الأول الذى أرسل إلى قومه ، كما ثبت في حديث الشفاعة ، فقال : يا قوم - ويا أهلى وعشيرتى : اعبدوا الله ربكم الذى خلقكم فسواكم وعدلكم على أتم صورة ، وأكمل نظام ، هو الذى خلق لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، سبحانه وتعالى هو المعبود بحق ، لا إله إلا هو ، ما لكم من إله غيره تدعون وتتضرعون إليه ، أمركم بهذا لأنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم وقعه ، وشديد هوله .

قال الملائ من قومه ، وهكذا أشراف الأمم ورؤساؤهم دائماً ، أعداء للهداة والمرشدين ، قالوا : إنا لنراك فى غمرة من الضلال أحاطت بك ، إذ كيف تنهانا عن عبادة آلهتنا : ود - سواع - يغوث - يعوق - نسر إن هذا لضلال مبين ظاهر .

قال نوح مجيباً لهم : يا قوم ، ليس بى ضلالة ، وليس بى خروج عن الحق والرشاد إذ أمرتكم بتوحيد الله وعبادته وحده دون الآلهة ، ولكنى رسول من رب العالمين ، أهدىكم إلى سبيل الرشاد ، وأدعوكم إلى ما فيه سعادتكم فى الدنيا والآخرة ، أبلغكم رسالات ربي من التوحيد الخالص ، والإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ، وما فيه من جنة ونار ، وثواب وعقاب ، وأبلغكم الأحكام العامة ، من عبادات ومعاملات .

وأنصح لكم ، وأحذركم عقاب الله ، وأذكركم به : [الدين النصيحة] قلنا لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ^(٣) .

وأعلم من الله مالا تعلمون ، ووعظى لم يكن عن جهل ، وإنذاركم عاقبة الشرك ، كل ذلك عن علم ، فنصحى لكم عن علم يقينى . لا تعلمونه ، أكذبتم وعجبتم أن جاءكم ذكر ووعظ من ربكم على لسان رجل منكم ؟!

وذلك أنهم يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ، ويقولون : ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، وكيف

(٢) الآية ١١١ من سورة يوسف .

(١) الآية ١٢٠ من سورة هود .

(٣) أخرجه البخارى فى الإيمان (٤٢) . ومسلم فى الإيمان (٦٥) . وأبو داود فى الأدب (٥٩) . والترمذى فى البر (١٧) . والنسائى فى

البيعة (٣١ ، ٤١) . والدارمى فى الرقاق (٤١) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٥١) وفى (٢ : ٢٩٧) وفى (٤ : ١٠٢ ، ١٠٣) .

يكون الرسول بشراً ولو شاء ربك لأنزل ملائكة .

ومهمتي لكم أني أحذركم عامة الكفر ، وأنذركم بين يدي عذاب شديد ، لينذركم ، ولتتقوا عذاب يوم عظيم ، وتخشوا بسبب الإنذار هذا اليوم ، وليعدكم بالتقوى لرحمته سبحانه وتعالى التي ترجى لكل من أجاب الدعوة .

أما هؤلاء الكفار ، فقد كذبوه وأصروا على تكذيبه ، وخالفوا أمر ربهم ، ولجوا في طغيانهم يعمهون ولم يؤمن معه إلا قليل ، وكان عاقبتهم أن نجى الله نوحاً والذين آمنوا معه برحمة منه ، فركبوا في السفينة ، ونجوا من الغرق .

وأغرق الذين كذبوا بآيات الله ، وكفروا بها ، ولا غرابة في ذلك فهم قوم عمون عن الهدى والرشاد ، قد طمس الله على قلوبهم ، وختم عليها وعلى أبصارهم غشاوة ، فلا يرون خيراً أبداً .

فاياكم ياأمة الدعوة أن تكونوا مثلهم ، وحذار ثم حذار أن تسيروا على منوالهم « وفي سورة هود تفصيل أوسع لهذه القصة » .

قصة هود عليه السلام

* وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَظُنُّكَ فِي سَفَاهَةٍ ۖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ
يٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أَبَلَيْغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ
نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا
إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً ۖ فَآذْكُرُوا ۖ آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا
إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ
سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وِءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطٰنٍ ۖ فَانظُرُوا ۖ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾
فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

المفردات : ﴿ أخاهم ﴾ : المراد واحد منهم كما قالوا ياأخا العرب ﴿ في سفاهة ﴾ : السفاهة

خفة حلم وسخافة عقل ﴿ خلفاء ﴾ : المراد خلفتهم في الأرض ﴿ آلاء ﴾ : واحدها ألى وهى النعمة
﴿ رجس ﴾ : عذاب من الارتجاس وهو الاضطراب ﴿ وقع عليكم ﴾ : حق عليكم ووجب
﴿ غضب ﴾ : انتقام ﴿ أتجادلوننى ﴾ : المجادلة المماراة والمخاصمة ﴿ دابر القوم ﴾ : آخرهم والمراد
استئصالهم جميعاً

قال محمد ابن إسحق : هم ولد عاد ابن إرم بن عوص بن سام بن نوح .

قال العلامة ابن كثير : هؤلاء هم عاد الأولى ، والذين ذكرهم الله ، وهم أولاد عاد بن إرم الذين
كانوا يأوون إلى العمدة في البر . كما قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ إرم ذات العماد * التى لم
يخلق مثلها في البلاد ﴿ ^(١) وذلك لشدة بأسهم وقوتهم ، كما قال تعالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض
بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا
يحتدون ﴾ ^(٢) .

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف ، وهى جبال الرمل .

قال محمد بن إسحق : عن محمد بن عبد الله بن أبى سعيد الخزاعى عن أبى الطفيل عامر بن واثلة :
(سمعت علياً يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيراً أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر
كثير بناحية كذا وكذا ، من أرض حضرموت ، هل رأيته ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين ، والله إنك لتنعتة
نعت رجل قد رآه . قال : لا ، ولكنى قد حدثت عنه . فقال الحضرمى : وما شأنه ياأمير المؤمنين
قال : فيه قبر هود عليه السلام) . رواه ابن جرير .

ويروى أيضاً : أنهم كانوا يسكنون باليمن بين عمان وحضرموت ، وكانوا مع ذلك قد فشوا في
الأرض ، وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله ، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله ،
فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام ، وهو من أوسطهم نسباً ، وأفضلهم موضعاً ، فأمرهم أن يوحدوا
الله ، ولا يجعلوا معه الهاً غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس ، فأبوا عليه وكذبوه ، وقالوا : من أشد منا
قوة ؟ واتبعه منهم ناس وهم يسير ، يكتمون إيمانهم .

فلما عتت عاد على الله ، وكذبوا نبيه ، وأكثروا في الأرض الفساد . وتجبروا . وبنوا بكل ريع آية عبثا
بغير نفع ، كلمهم هود فقال ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا
بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون ﴾ ^(٣) وقالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك
وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ ^(٤) أى بجنون ﴿ قال إني أشهد الله
واشهدوا أنى برىء مما تشركون * من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي

(٣) الآيات ١٢٨-١٣١ من سورة الشعراء .

(٤) الآيتان ٥٣ ، ٥٤ من سورة هود .

(١) الآيات ٦-٨ من سورة الفجر .

(٢) الآية ١٥ من سورة فصلت .

وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴿١﴾ قال محمد بن إسحق فلما أبوا إلا الكفر به أمسك الله عنهم القطر .أ.هـ .

وقد بينت سورة الأحقاف ما حدث للقوم بعد أن اشتدت حاجتهم إلى المطر ، وما أصابهم من العذاب الأليم ، قال جل شأنه : ﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ قالوا أجبتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴿ قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ﴿٢﴾ .

ولقد بين الله تعالى بعد هذه الآيات الدرس المستفاد مما حدث ، لتكون فيه العبرة لجبابرة الأرض ، فقال سبحانه ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴾ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴿٣﴾ .

إن قصة عاد مع نبي الله هود فيها من الدروس ما يدمر طغاة الأرض ، وحسبك أن تعلم أن عاداً غرتهم قوتهم ، وركبوا رؤوسهم ، وعشش الشيطان في تلك الرؤوس ، فباض فيها الإلحاد ، وأفرخ فيها الجبروت ، حتى قالوا : من أشد منا قوة ، وجاء الرد من رافع السماء بلا عمد ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾ ﴿٤﴾ .

وجاء العقاب الأليم الشديد ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾ ﴿٥﴾ .

وجاء العقاب ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ففري القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ فهل ترى لهم من باقية ﴿٦﴾ وجاء العقاب ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ﴾ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ﴾ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابي ونذر ﴿٧﴾ .

قوله تعالى ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ أى كما أرسلنا نوحاً إلى قومه كذلك أرسلنا هوداً إلى عاد ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ .

وأى اعتراض على هذا الأمر ، أليست الكائنات كلها شاهدة بلسان الحال والمقال على وحدانية الخالق .

(١) الآيات من ٥٤-٥٦ من سورة هود . (٤) الآية ١٥ من سورة فصلت . (٦) الآيات ٦-٨ من سورة الحاقة .

(٢) الآيات ٢١-٢٥ من سورة الأحقاف . (٥) الآية ١٦ من سورة فصلت . (٧) الآيات ١٨-٢١ من سورة القمر .

(٣) الآية ٢٦ من سورة الأحقاف .

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع الملك
عيون من لجين شاخصات بأبصار هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

فماذا كان جوابهم ﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ هذا هو منطق الباطل ، منطق الدجل والتهريج والحمق والنزق ، وهل يرتفع صوت الباطل إلا بالجدل العقيم من السفه في الفريقين ، هل يتهم الأمر بالتوحيد بالسفه والتوحيد منطق الحق ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ .

هل السفه في أهل الإصلاح والحق ، إن خفة الأحلام وسخف العقول في أهل الشرك ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾^(١) .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنا الجبين الساجد

ثم هل جرموا عليه كذباً وقد عصم الله أنبياءه من الكذب من مهدهم إلى لحدهم ، قال تعالى في الحديث القدسي الجليل [صدق عبدى فيما يبلغ عنى] هل كذب الأنبياء على الخلق ، وأجرموا عليهم كذبا ، بل كان خاتمهم يلقب بالصادق الأمين ، حتى صار ذلك علما عليه ، ولكن الباطل هو الباطل ، يعربد في عرصات الأرض ، فاذا تصدى له الحق ركب رأسه فدمره الحق ﴿ بل نقذف بالباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾^(٢) ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾^(٣) ﴿ قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴾^(٤) .

فماذا قال هود عليه السلام ﴿ قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين ﴾ .

هذا هو منطق الحق ينساب انسياب الماء الطهور ، وينبلج انبلاج الضوء بيدد غياهب الظلمات في هدوء وطمأنينة ، ويمحو فلول الدجى في ثبات وشموخ ورسوخ وبزوخ ، ليس بى سفاهة وأى سفاهة في كلام هود ، وأنا لكم ناصح أمين أى سفه في النصيح .

إن أهل الباطل دائماً مصابون بالإفلاس الفكرى ، والجدل العقيم .

ثم يقول هود ﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾ أى عجب في هذا ، وأى غرابة في أن يكون الرسول بشرا ، إن بشريته هي المنطق السديد ، لأنه يدعو بشرا فلا بد أن يكون عارفاً بدوافع البشر ، خبيراً بحاجاتهم ، ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾^(٥) وقال سبحانه :

(١) الآية ٢٢ من سورة الأنبياء . (٣) الآية ٨١ من سورة الإسراء . (٥) الآية ١١ من سورة إبراهيم .
(٢) الآية ١٨ من سورة الأنبياء . (٤) الآية ٤٩ من سورة سبأ .

﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾^(١)

ثم ذكرهم هود بنعمة الله عليهم ، فقال ﴿فاذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾ .

إن استخلافهم في الأرض بعد قوم نوح لعبرة ، كان عليهم أن يدركوها ، وإن في بسطة الله لهم في الخلق والقوة لنعمة يجب أن يشكروها ، وأن يذكروا تلك الآلاء ليفلحوا وينجحوا ، ولكن يأبى منطق الباطل إلا أن يلج في عتو ونفور ، فبدلاً من أن يقولوا اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك ، بدلوا نعمة الله كفراً ﴿قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتينا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ .

فكان مثلهم في ذلك كمثل القوم الذين قالوا ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾^(٢) بدلاً من أن يقولوا : فاهدنا إليه ، فماذا كان رد هود قال ﴿قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباءكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ .

نعم إن هذا هو القول الفصل فقد حق عليهم الرجس والسخط ، ﴿وكذلك حقّت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار﴾^(٣) ﴿وكذلك حقّت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون﴾^(٤) .

يأمرهم بتوحيد الخالق فيجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق في أسماء لا مسميات لها ، وما نزل الله بها من سلطان . ولا إذن ولا برهان ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾^(٥) لقد بال الثعلب ذات يوم على صنم كان يعبدّه أحدهم قبل الإسلام فوقف يتأمل صنمه وأنشد :
 أربُّ يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب
 فلو كان رباً كان يمنع نفسه فلا خير في رب نأته المطالب
 برئت من الأصنام في الأرض كلها وآمنت بالله الذي هو غالب

وكان لابد من العاقبة ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، قال تعالى ﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾ قال جل شأنه ﴿ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد * وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود﴾^(٦) .

(١) الآية ٩ من سورة الأنعام . (٢) الآية ٦ من سورة غافر . (٥) الآية ٩٨ من سورة الأثياء .

(٢) الآية ٣٢ من سورة الأنفال . (٤) الآية ٣٣ من سورة يونس . (٦) الآيات ٥٨ - ٦٠ من سورة هود .

نعم إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . اقرءوا إن شئتم ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ (١)

وهكذا طويت عاد كما يطوى البرق معصرات الغمام ، وأدرجت في أكفان القدر ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذى الأوتاد * الذين طغوا في البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك ليالمrصاد ﴾ (٢).

نبكى على الدنيا وما من معشر	جمعتهم الدنيا فلم يفرقوا
أين الأكاسرة الحبابرة الألى	جمعوا الكنوز فما بقين وما بقوا
من ذا الذى خاق القضاء بجيشه	حتى ثوى فحواه لحد ضيق
خرس إذا نودوا كأن لم يعلموا	أن الكلام لهم حلال مطلق

أين من بنى وشيد ، وعمر ومجد ، أين الفراعة الشداد ، أين ثمود وأين عاد تلك بيوتهم خاوية سكنتها الذئاب العاوية فهل يرى لهم من باقية ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء * وأنذر الناس يوم يأتهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال * وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال * فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام * يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار * وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد * سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار * ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب * هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾ (٣)

قصة صالح مع قومه عليه السلام

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومَ عَبْدُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِنُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ

مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ
 اتَّعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ
 اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِءُ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا
 يُصَالِحُ آثِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
 جَنِّمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلْقَوْمَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ
 لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴿٧٩﴾

المفردات : ﴿ثمود﴾ : قبيلة من العرب كانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي
 القرى ، سميت باسم جدهم ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح ، وأخوة صالح لهم : أخوة في
 النسب كأخوة هود لقومه ﴿آية﴾ : هي البينة أى المعجزة الظاهرة الدلالة ، ﴿واذكروا﴾ : أى
 تذكروا ﴿وبوأكم في الأرض﴾ : أى أنزلكم فيها وجعلها مباءة لكم ﴿والأرض﴾ : أرض الحجر بين
 الحجاز والشام ﴿تحتون﴾ : النحت النحر فى الشيء الصلب ﴿ولا تعثوا﴾ : العيث والعشى :
 الفساد ﴿استكبروا﴾ : عتوا وتكبروا ﴿وعقروا الناقة﴾ : نحروها وأصل العقر الجرح ، وعقر الإبل
 قطع قوائمها وكانوا يفعلون ذلك بها قبل نحرها لتموت فى مكانها ولا تنتقل ﴿وعتوا﴾ : تمردوا
 مستكبرين ، التمرد والامتناع إما عن عجز وضعف ، ومنه عتا الشيخ عتيا : إذا أسنَّ وكبر ، وإما عن قوة
 كعتو الجبارين والمستكبرين . ويقولون نخلة عاتية : إذا كانت عالية يمتنع جناها على من يريد لها إلا بمشقة
 التسلق والصعود ﴿الرجفة﴾ : المرة من الرجف وهو الحركة والاضطراب ، يقال رجف البحر : إذا
 اضطربت أمواجه . ورجفت الأرض : زلزلت واهتزت ، ورجف القلب والفؤاد من الخوف
 ﴿دارهم﴾ : دار الرجل ما يسكنها هو وأهله ، ويطلق على البلد وهو المراد هنا ، وجثم الناس : قعدوا
 لأحراك بهم ، قال أبو عبيدة : الجثوم للناس والطير كالبروك للإبل .

كانت قبيلة ثمود من قبائل العرب البائدة وقد كانوا خلفاء لقوم عاد بعد أن أهلكهم الله ، فورثوا
 أرضهم وديارهم . وآتاهم الله نعمًا كثيرة ، وأرسل إليهم صالحًا نبيا فيهم يهديهم إلى الصراط السوى ،
 ولكنهم عصوا وتكبروا وكفروا ، وطالبوا صالحًا بآية فبعث الله إليهم ناقة تصدق له ولكنهم عقروها وعتوا
 عن أمر ربهم فقال لهم : تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، بعدها نزل عذاب الله ووعدده ، ونجى الله صالحًا
 والذين آمنوا معه ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا أثرا بعد عين ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا
 لثمود ، وتلك عقبى الظالمين ، ومآل الفاسقين .

روى الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل
 بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ، ونصبوا

لها القدور ، فأمرهم النبي ﷺ فأهراقوا القدور ، وعلفوا العجيين الإبل ، ثم ارتحل بهم ، حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، وقال : « أنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم »^(١).

وروى أيضا الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم »^(٢).

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون المسعودي عن إسماعيل بن واسط عن محمد بن أبي كبشة الأثماري عن أبيه قال : « لما كان في غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى في الناس [الصلاة جامعة] قال : فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعنزة وهو يقول : وما تدخلون على قوم غضب الله عليهم » فناداه رجل منهم : نعجب منهم يا رسول الله ؟ قال : « أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك » ؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وبما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا أو سدّدوا ، فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئا ، وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئا » .

قوله تعالى : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾

أى وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا ، كما أرسلنا نوحا إلى قومه ، وهودا إلى قومه وجاء الأمر هنا بعبادة الله وحده وهو توحيد الألوهية كشأن كل نبي يبعث إلى قومه ، فكل الأنبياء عملوا في معسكر واحد ، وهو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد ، هو قول : لا إله إلا الله .

قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾^(٣) وقال جل شأنه : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾^(٤) .

وقال صلوات ربي وسلامه عليه : أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي « لا إله إلا الله » .

لقد سارت مواكب التوحيد يقودها الأنبياء ، وأتباعهم الذين رفعوا راياتهم . خفاقة تناطح الجوزاء ، وتزاحم الشمس في الجلاء ، ومشى على وجه الزمان بنورها قوم أتقياء أنقياء أعلنوها في قوة الإيمان . وقالوا : لا إله إلا الله ، عليها نحيا وعليها نموت ، وفي سبيلها نجاهد ، وعليها نلقى الله ، سنطرب المريض بدوائنا ، وسنؤمن الخائف في رحابنا ، وسنتلو على الدنيا كتاب جهادنا . صُمّت أذن الدنيا إن لم تسمع لنا .

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٥٣) وفي الأنبياء (١٧) وفي تفسير (سورة ١٥ : ٢) . وأخرجه مسلم في الزهد (٣٨ ، ٣٩)

والإمام أحمد في (٢ : ٩٠ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٩١ ، ٩٦ ، ١١٣ ، ١١٧)

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٥٣) وفي الأنبياء (١٧) وفي تفسير (سورة ١٥ : ٢) . ومسلم في الزهد (٣٩ ، ٤٨) . الإمام أحمد في

(٢ : ٩٠ ، ٥٨ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١٣٧) .

(٤) الآية ٣٦ من سورة النمل .

(٣) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

قوله تعالى : ﴿ قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية ﴾ .

البينة الحجة القاطعة ، والبرهان الساطع على صدق رسالته ، وقد طلبوا منه آية تدل على صدقه ، فكانت الآية هي الناقة التي أخبر الله عنها بقوله : ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ، ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ، قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾ (١) .

كانت هناك بئر في ثمود ، أمرهم نبي الله صالح أن يكون لهم شرب في يومهم (أى نصيب من الماء) وللناقة نصيبها من الماء ، وقد روى أن اليوم الذى كان مخصصا للناقة كانوا يشربون من ألبانها ، وكان الله تعالى يسوق لهم من الألبان ما يغنيهم عن شرب الماء ، فقطع المعاذير أمامهم ، وإنما أضيفت الناقة إلى لفظ الجلالة تشريفا لها ، حتى لا يمسوها بسوء من خشية الله وتوقيره ، وليذروها تأكل في أرض الله ، وترتع في خيراته ، ونهاهم أن يمسوها بسوء ، وأنذرهم بالعذاب الأليم إن هم فعلوا ذلك . قال تعالى : ﴿ هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ وفى آية أخرى : ﴿ فيأخذكم عذاب قريب ﴾ (٢) .

وذلك لأن العذاب قد وقع بعد عقربا بثلاثة أيام . وفى سورة الشعراء ﴿ فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾ (٣) لأنه كان يوما عصيبا يجعل الولدان شيبا .

ثم ذكرهم بنعم الله تعالى عليهم ، وأن النعمة تقابل بالشكر لا بالجحود . قال تعالى : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد * وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا * فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ .

ولقد سجل لهم التاريخ حذقهم ومهارتهم فى فن المعمار ، كما سجل لهم القرآن الكريم ذلك . جاء فى سورة الحجر : ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمين ﴾ (٤) .

كما سجل لهم القرآن الكريم ما كانوا فيه من النعيم والهناء ورغد العيش ، وأن النعيم الذى كانوا فيه كان يلح عليهم أن يعرفوا الله فضله ويشكروا له آلاءه .

جاء فى سورة الشعراء ﴿ كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أتركون فيما هاهنا آمين * فى جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين * فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾ (٥)

(١) الآيات ١٥٣-١٥٦ من سورة الشعراء . (٣) الآية ١٥٦ من سورة الشعراء . (٥) الآيات ١٤١-١٥٢ من سورة الشعراء .

(٢) الآية ٦٤ من سورة هود . (٤) الآيات ٨٠-٨٢ من سورة الحجر .

وقد اتخذ النور من سهول الأرض قصورا يقضون فيها الصيف ، واتخذوا من سبلات بيوتهم يقضون فيها أيام الشتاء ، وقطعوا الصحور واختوا الجبال . قال تعالى : ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ (١) .

كان عليهم أن يأخذوا العبرة من عاد ، وكيف سحب التاريخ عليهم أذيال الفناء ، فأصبحت بيوتهم خاوية تنعق فوقها البوم والغربان . بعد أن كانت مشربة الأعناق ، تصدح فوقها بلابل السعادة قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴾ فلما لم تأخذ ثمود العبرة من عاد أصابها مثل ما أصاب عادا . قال تعالى : ﴿ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴾ .

نعم كان عليهم أن يذكروا آلاء الله ويلهجوا بالثناء عليه ، قال تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ قال موسى عليه السلام : (يارب كيف أشكرك ؟) قال تذكرني ولا تنساني . إنك إن ذكرتني شكرتني وإن نسيتني نسيتني .

وهذا نبي الله سليمان بن داود ، لما وجد عرش بفتيس أمامه قبل أن يرتد إليه طرفة ، لم يستطع الغرور أن يتسور عليه حصون نفسه المنيعه ، فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢) .

وها هو ذا خاتم الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليه تعرض عليه الجبال لتكون له ذهباً وفضة فيأبى ، ويخيره موله بين أن يكون نبيا عبداً أو نبيا ملكاً فيقول يارب : ﴿ بَلْ نَبِيًّا عَبْدًا أَجُوعٌ يَوْمًا فَأَذْكُرْكَ وَأَشْبَعُ يَوْمًا فَأَشْكُرْكَ ﴾ (٣) .

يقول صاحب البردة :

ورأودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته إن الضرورة لاتعدو على العصم

وجل جلال الله إذ يقول في الحديث القدسي الجليل : [ابن آدم عندك ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك ، لا بقليل تقنع ولا من كثير تشبع . إذا كنت معافى في بدنك آمناً في سربك ، عندك قوت يومك فقد حيزت لك الدنيا بخذافيرها] (٤) .

فصلوات ربه وسلامه على نبي أعطاه الله شجاعة موسى ، وشفقة هارون ، وإقدام داود ، وعظمة سليمان ، وصبر أيوب ، ورحمة عيسى ، وبساطة يحيى . ^{صلى الله عليه} إذ يقول : ﴿ وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ ﴾ .

فيا إلهي :

رضاك خير من الدنيا وما فيها يامالك النفس قاصيها ودانيها

- (١) الآية ٩ من سورة الفجر . (٤) الآية ٤٠ من سورة النمل .
(٢) الآية ٥٠ من سورة النجم . (٥) أخرجه الترمذي في الزهد (٣٥) .
(٣) الآية ٥١ من سورة النجم . (٦) أخرجه البخاري في التوحيد (٣٨) والحرث (٢٠) ، والإمام أحمد في (٢٠: ٥١) .

فليس للنفس آمال تحققها سوى رضاك فذا أقصى أمانها
فنظرة منك يا سؤلى ويا أملئ خير إلى من الدنيا وما فيها

لقد ذكّرهم نبي الله صالح بنعم الله عليهم ، فقد استخلفهم من بعد عاد ، ومكّن لهم في الأرض ، وهياً لهم سبل العيش ، فجعلوا من سهول الأرض قصورا ، ونحتوا من جبالها بيوتا ، ثم أمرهم بذكر الله وآلائه عليهم ، ونهاهم عن الإفساد في الأرض ، فلو كانوا ذوى ألباب راشدة ، وعقول مفكرة ، لاستجابوا لله ، وأنابوا إليه جلّ في علاه ، ولكن بادر الملأ الذين استكبروا من قومه ، بادرُوا المستضعفين الذين آمنوا بقولهم : ﴿ اتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ﴾ .

لم يكن استفهامهم على وجه الحقيقة ، أو لطلب الفهم ، إنما كان على وجه الاستهزاء والتوبيخ والتفريع ، فكان جواب المؤمنين المستضعفين : ﴿ إنا بما أرسل به مؤمنون ﴾

جاء الجواب مفحما وجازما ، فلم يقل المؤمنون في جوابهم : نعم تعلم أنه مرسل من ربه ، إنما كان الجواب أعم وأشمل : إنا بما أرسل به مؤمنون ، فزادوا في الجواب زيادة تدل على تصديقهم الجازم ، وإيمانهم المطلق بكل ما أرسل به نبي الله صالح . والمستضعفون هم أتباع الرسل الذين قامت على أكتافهم الدعوات ، والذين صمدوا أمام الأحداث وتمرسوا بالشدائد ورخصت أرواحهم في أسواق الموت ، وجادوا بالنفس إن ضنّ الجواد بها، فماذا كان جواب المستكبرين ؟

قالوا : ﴿ إنا بالذى آمنتم به كافرون ﴾ فتأمل معى البون الشاسع والفرق البعيد بين القولين . قال المستضعفون : ﴿ إنا بما أرسل به مؤمنون ﴾ وقال المستكبرون : ﴿ إنا بالذى آمنتم به كافرون ﴾ . إنه الفرق بين الإيمان المطلق والكفر المطلق ، إنهما نقيضان لا يجتمعان ، وضدان لا يلتقيان ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوى الأحياء ولا الأموات * إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور ﴾ (١) .

ثم تأمل مدى الاستكبار عن قبول الحق إذ كان القياس أن يقول المستكبرون : ﴿ إنا بما أرسل به كافرون ﴾ ليكون على غرار قول المستضعفين : ﴿ إنا بما أرسل به مؤمنون ﴾ . لكنهم لم تطاوعهم أنفسهم الأمارة حتى يقولوا : ﴿ إنا بما أرسل به ﴾ فإنهم ينكرون الرسالة من أصل ولا يرضون أن يقرّوا بها .

ووقعت الواقعة ، ورجّت الأرض رجًا ، وتكهرب الجو ، ودخلت الشمس في منطقة الكسوف ، وخسف القمر ، فأصبحت أيامهم بلا شمس ، ولياليهم بلا قمر ، ففكروا وقدرُوا وعبسوا وبسروا ثم أدبروا واستكبروا ، فتآمر تسعة منهم على قتل صالح وأهله ولكن يد الله كانت تعمل في الخفاء ، فجعل تدبيرهم ، وكيدهم فى نحرهم .

استمع معى إلى ما جاء فى سورة النمل ، يعبر التعبير الصادق عن هذا المشهد . قال جل شأنه : ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله . فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ * قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون * قالوا اطيّرنا بك وبمن معك قالوا طائرکم عند الله بل أنتم قوم تفتنون * وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾ * قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولنّ لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون * ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون ﴾ (١) .

فأهلك الله هؤلاء التسعة قبل قومهم ، أما القوم فقد تآمروا على عقر الناقة وعصيان أمر الله ، ولجّوا فى عتو ونفور ، فسلطوا أشقاهم واسمه « قدار بن سالف » فعقر الناقة ، وإنما أسند الله العقر إليهم لأنهم حرصوا على ذلك ورضوا عنه . قال تعالى : ﴿ كذبت ثمود بطغواها * إذ انبعث أشقاهما فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها * فكذبوه فعقروها * فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها ﴾ (٢) .

لقد عقروا الناقة بعد ما كفروا بالله وخالفوا أمره . قال تعالى : ﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ﴾ * وبدلاً من أن يقولوا : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ﴾ قالوا : ﴿ فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ (٣) .

لقد قالوا : ﴿ يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ .

وتلك مواقف أهل الباطل ، عندما يركبون رءوسهم التى عشش الشيطان فيها فباض الإلحاد وأفرخ الكبر قال تعالى : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة ، فظلموا بها ﴾ (٤) .

فكان لابد من الجزاء ، قال تعالى : ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثين ﴾ . وقد جاء الإخبار عن عذابهم فى مواضع غير قليلة من القرآن ، وهذه الآية إحداها .. وفى سورة هود يقول تعالى : ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثين * كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴾ (٥) . وفى سورة فصلت يقول تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ (٦) . وفى سورة الحاقة يقول تعالى : ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ (٧) .

ولا تعارض بين هذه الآيات فقد رُجّت الأرض كإندارهم بنزول العذاب ، ثم جاءت الصيحة ، ثم أعقبتها الصاعقة ، فكانت أنواع العذاب كلها هى الطاغية التى عمتهم وشملتهم بعد صعق أرواحهم . قال تعالى : ﴿ كذّبت ثمود بالنذر ﴾ فقالوا : أبشراً منا واحدا نتبعه إنا لفى ضلال وسعر * ألقى الذكر

(١) الآيات ٤٥-٥٢ من سورة النمل . (٤) الآية ٥٩ من سورة الإسراء . (٧) الآية ٥ من سورة الحاقة .

(٢) الآيات ١١-١٥ من سورة الشمس . (٥) الآيتان ٦٧ ، ٦٨ من سورة هود .

(٣) الآية ٥٩ من سورة الإسراء . (٦) الآية ١٧ من سورة فصلت .

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِغُلَامَيْهِ اتَّأْتُونِي بِمِنْهَآ فَمَتَّبَعْنَاهُمَا فَأَتَيْنَاهُمَا أَتَيْنَاهُمَا بِمَا كَانُوا يٰسْتَعْجِلُونَ
 الرِّجَالُ شَهْوَةٌ مِّنْ دُونِ النَّسَاءِ فَتَقَبَّلَنَّهُمْ فَمِنْ أَيْنَ مَا كَانُوا جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا
 أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ لَا يَتَّبِعُكُمْ فِي الْبِلَادِ أَصْحَابُ الْمَدِينَةِ وَالنَّسَاءُ لَكُمْ لَعْنَةً وَأَمْرًا كَانَتْ مِنْ
 الْغَافِرِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا عَصِيمًا مِّنْ سَمَرٍ لَّكُم مِّنْ شَرِّ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾

المفردات : ﴿لَوْطًا﴾ : لوط بن حابر بن أحمى إبراهيم عليه السلام ، ولد في (أور الكلدانيين) في الطرف الشرقي من جنوب العراق وكانت تسمى أرض بابل ، وكان قد سافر بعد موت والده مع عمه إبراهيم عليه السلام إلى ما بين النهرين وكان يسمى جزيرة قورا ، وهناك كانت مملكة أشور ، ثم أسكنه إبراهيم شرق الأردن لحوده مراعيها ، وكان في ذلك المكان المسمى بعمق السديم بقرب البحر الميت أو بحر لوط ، قرى خمس ، سكن لوط في إحداها المسماة بسدوم ، وكانت تعمل الخبثات ولا يوجد الآن ما يدل على موضعها بالتحديد ، وبعض الناس يقول : إن البحر قد غمرها ولا دليل لهم على ذلك . ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ : مأخوذ من قَوْمِهِمْ أَيْ المرأة إذا غشيها . ﴿مِنَ الْغَافِرِينَ﴾ : أى الباقين في عذاب الله ، يقال غبر الشيء إذا مضى ، وغبر إذا بقى .

يخبر سبحانه وتعالى أنه أرسل لوطا إلى قومه فقال لهم : ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ثم بين جل ذكره نوع تلك الفاحشة فقال : ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ بل أنتم قوم مسرفون .

وفي سورة النمل يقول سبحانه : ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : اتَّأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ . أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ بل أنتم قوم تجهلون .
 فوصفهم هنا بالجهل ، وهنا بالإسراف ، لأن الإسراف والجهل متلازمان ، فكل مسرف جاهل ، وكل جاهل مسرف .

وفي سورة العنكبوت يعدد جرائمهم المنكرة وفعالهم الشنيعة . قال تعالى : ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ ﴿١٧﴾ .

فهذه فعائل وخصائل بلغت من المنكر ما لا يحصى ، فكل من فعل ذلك فهو من المجرمين .

العالمين ، وهو قلب الفطرة السليمة عن وجهها الصحيح ، بتصريف الشهوة في غير ما وضعت له ، فقد خلق الله تعالى الناس من ذكر وأنثى ، وشرع لهم ما ينظم سلوكهم على طريق مستقيم ، فلما انحرفت البشرية عن الصراط السوى وغيّرت المنهج الربّاني ، كان ما كان من عقاب سماوى ، فقد سمعنا بمرض سماه البعض لعنة السماء ، وهو مرض خطير استشرى كالسّم في الأحشاء والنار في الحلفاء ، وانتشر في الأوساط الراقية التي عُرفت بالمدينة الحديثة . انتشر في أمريكا ودول أوربا ويسمى « الإيدز » .

وقد صدر كتاب يحمل عنوانه اسم هذا المرض ، وقد جاء فيه من المعلومات عن هذا المرض ما يعطينا صورة وافية عن كل ما يتعلق به ، وكتبه مؤلفه د. رفعت كمال في صورة سؤال وجواب نحاول التقاط ما يلقي الضوء على أهمية الموضوع وخطورته ولم استحق آل لوط العقاب على فعلتهم تلك :

اكتشفت العلماء وجود مرض الإيدز في عام ١٩٨١ ، حيث بلغ عدد المصابين بهذا المرض حتى الآن حوالى ١٢ ألف مريض ، وصل عدد الوفيات بينهم إلى النصف . ويمكن أن يحمل الإنسان عدوى المرض دون أن تظهر عليه أى أعراض ، وفي هذه الحالة يمكن أن تنتقل منه العدوى إلى الآخرين عن طريق تداخل سوائل الجسم مثل : الدماء ، السائل المنوى ، الدموع ، اللعاب . والتي يوجد فيها الفيروس المسبب للمرض فتحدث العدوى خلال اللقاء الجنسي ، أو نقل الدماء من شخص مريض إلى شخص سليم ، أو استعمال محقن واحد في حقن شخصين ، وبذلك تنتقل العدوى من شخص لآخر .

فإذا هاجم فيروس المرض الخلايا التي تدافع عن الجسم ضد غزو الميكروبات فإن هذه الخلايا تعجز عن أداء دورها ، ويتم تدمير قدرة الجسم على مقاومة الأمراض .

ويحدث لمريض الإيدز تلك الأعراض : تضخم الغدد الليمفاوية مع استمرار هذا التضخم لأكثر من شهر — ظهور أورام حمراء داكنة وتظهر في أى مكان بالجسم ، وهى تزيد في الحجم — حدوث نقص واضح في وزن الجسم ، ويكون ذلك خلال شهرين — فقدان الشهية — الإحساس بالتعب والإرهاق عند القيام بأقل مجهود — ارتفاع في درجة الحرارة — العرق بغزارة خصوصا أثناء الليل — سعال جاف مصحوب بارتفاع في درجة الحرارة — إحساس بالضيق عند التنفس — الإصابة بالإسهال — ضعف في العضلات — ظهور بعض البثرات — ظهور بقع بيضاء في الفم وهذه البقع تكون سميقة نوعا ما .. وتظهر على كل أجزاء الفم من الداخل .

إن العدوى في البيت الواحد تنتقل بين الزوجين خلال اللقاء الجنسي ، ومن الأم الحامل إلى جنينها ، أما الطفل المولود قبل إصابة الأم أو الابن الشاب فإنه لا يصاب بالعدوى ..

وتعتبر فترة الحضانة لهذا المرض هى الفترة التى تبدأ من التعرض إلى العدوى ، وتنتهى مع ظهور أعراض المرض ، وهى تتراوح بين عامين وخمسة أعوام ، يكون فيها المريض قادرا على نقل العدوى للآخرين خلال هذه الفترة وقد اتضح أن ٩٠٪ من الحالات التى سجلت في هذا المرض تنقسم إلى مجموعتين :

– المجموعة الأولى : هؤلاء المصابون بالشذوذ الجنسى .

– المجموعة الثانية : هؤلاء الذين يتعاطون المواد المخدرة عن طريق الحقن فى الوريد حيث تستعمل مجموعة منهم حقنة واحدة فى حقن المخدر ... وتنتقل بذلك العدوى من مريض إلى آخر سليم .

إن آثار هذا المرض لا تقتصر على التأثير الصحى الضار على جسم المريض ، بل إن للمرض آثاره النفسية المدمرة : فالناس تهرب من وجه مريض الإيدز – والأهل يرفضون إقامته معهم أو الإشراف على علاجه – وأصحاب الأعمال يفصلون كل من تظهر عليه الأعراض – حتى العاملون فى المستشفى ، إنهم يتحاشون الاقتراب من هؤلاء المرضى خوفا من انتقال العدوى .

فالرعب من عدوى هذا المرض يصيب من يزاول الشذوذ الجنسى ، ومن لا يزاوله ، حيث أكدت استطلاعات الرأى العام فى أمريكا أن ٣٠٪ من الناس يؤكدون أن هذا المرض سيصبح وباء عالميا ، وأن الكل يبحث عن الإجراءات الوقائية التى يمكن أن تحميه من الخطر القادم الغامض حيث يسبب استسلام الجسم للعدوى بلا مقاومة ، والخطر فى هذا المرض أن المصاب به طول حياته يصبح حاملا للعدوى .

وقد تأكد أن لهذا الفيروس خاصية محددة هى الهجوم على الخلايا الليمفاوية المعروفة باسم « قى ٤ » وهى نوع من الكرات البيضاء المتخصصة فى مقاومة جراثيم الأمراض ، وكذلك بعض أنواع السرطان ، وعندما يهاجم الفيروس هذه الخلايا الليمفاوية فإنه يدمر الحامض الخلوى المعروف باسم دى – ان – ايه (DNA) وهو الحامل للوراثة فى نواة الخلية .

وقد اتضح أن الفيروس يفرز نوعا من البروتين له قدرة التغلب على الخلية « قى ٤ » بحيث تكون الحصيلة هى خروج كميات كبيرة من الفيروسات فى فترة وجيزة جدا . وقد تأكد أن هذا البروتين يصيب الخلايا الليمفاوية بالشيخوخة المبكرة ، مما ينهى حياتها فى وقت مبكر .

إن المتتبع لإحصائيات عدد المرضى « بالإيدز » يجد أنها فى البلاد التى زاد فيها الترف والفسق حيث يفسدان أخلاق الأمم ، ويباعدان بينها وبين منهج الله .

تقول الإحصائيات ، فى فرنسا ٣٠٠ حالة – فى ألمانيا الغربية ١٦٢ حالة – فى بريطانيا ١٨٤ حالة أما فى آسيا فإن الحالات أقل بكثير .. أما الرقم الهام الذى يكشف عن مدى انتشار الإيدز فى الولايات المتحدة الأمريكية فهو ١٢ ألف مريض ، من هؤلاء مات ستة آلاف والباقيون يعانون من المرض بلا شفاء .

ولكن .. لماذا ينتشر الإيدز بين الشواذ جنسيا ؟

يقول الأطباء العاملون فى هذا المجال : إن الخلية التى يهاجمها الفيروس ويعيش بداخلها .. وهى الخلية التى تتولى الدفاع عن الجسم .. تتراكم بكميات كبيرة بجانب المستقيم ، وذلك حتى تدافع عن الجسم إذا ما هاجمه أى ميكروب يتسرب من المستقيم . ولذلك فقد ظهرت حالات الإيدز المتزايدة بين الشباب ، وخاصة هذا الشباب الذى يزاول الشذوذ الجنسى .

صدق . سيدى يا رسول الله فقد كنت تنظر من وراء الحجب ، وتستشف الغيوب بما أوحى الله به إليك ، فقد زكى الله عقلك فقال : ﴿ ماضٍ صاحبكم وما غوى ﴾^(١) وزكى لسانك فقال : ﴿ وما يطق عن أهوى ﴾^(٢) وزكى شرعت فقال : ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾^(٣) . وزكى معلمك فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾^(٤) وزكى فؤادك فقال : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾^(٥) وزكى بصرك فقال : ﴿ مراع البصر وما طعى ﴾^(٦) وزكى رسالتك فقال : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾^(٧) ورزأك كنت فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾^(٨) .

إذا كان هك من سمي « الإيدز » بنعنة السماء فقد سبقتهم يا سيدى يا رسول الله بأربعة عشر قرنا من الزمان عندما قررت تلك الحقيقة الناطقة بالحق فقلت : ﴿ لم تظهر لنا حشة في قوم حتى يعنوا بها إلا منافيتهم الأوحاء التي لم تكن في أسلافهم ﴾^(٩) .

بنيت لهم من الأخلاق ركبا
ولو حفظوا سبيلك كان نورا
وكان جنابهم فيها مهيبا
فخانوا الركن فانهدم اضطرب
وكان من النحوس لهم حجابا
وللأخلاق أجدر أن تهابا

وللفقهاء في اللواط كلمة

إن جريمة اللواط من أكبر الجرائم ، وهى من الفواحش المفسدة للخلق وللجنة وللدين والدنيا ، بل وللحياة نفسها ، وقد عاقب الله عليها بأقصى عقوبة فحسف الأرض بقوم لوط ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل جزاء فعلتهم القذرة .

وقد أمر الرسول ﷺ بقتل فاعله ولعنه : روى أبو داود عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ؛ فاقتلوا الفاعل والمفعول به »^(١٠) .

وروى النسائي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله من عمل عمل قوم لوط .. لعن الله من عمل عمل قوم لوط .. لعن الله من عمل عمل قوم لوط »^(١١) .

قال الشوكاني :

« وما أحق مرتكبى هذه الجريمة ، ومقارفى هذه الرذيلة الذميمة بأن يعاقب عقوبة يصير بها عبرة

- | | | |
|---|------------------------------|------------------------------------|
| (١) الآية ٢ من سورة النجم . | (٤) الآية ٥ من سورة النجم . | (٧) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء . |
| (٢) الآية ٣ من سورة النجم . | (٥) الآية ١١ من سورة النجم . | (٨) الآية ٤ من سورة القلم . |
| (٣) الآية ٤ من سورة النجم . | (٦) الآية ١٧ من سورة النجم . | (٩) أخرجه ابن ماجه فى الفتن (٢٢) . |
| (١٠) أخرجه الترمذى فى الحدود (٢٤) . وابن ماجه فى الحدود (١٢) . وأبو داود فى الحدود (٢٨) . والإمام أحمد فى (٢٦٩:١) . | | |
| (١١) أخرجه الإمام أحمد فى (٣١٧، ٣٠٩:١) . | | |

للمعتبرين ، ويعذب تعذيباً يكسر شهوة الفسقة المتمردين فحقيق بمن أتى بفاحشة قوم ما سبقهم بها من أحد من العالمين ، أن يصلي من العقوبة بما يكون في الشدة والشناعة مشابها لعقوبتهم ، وقد خسف الله تعالى بهم ، واستأصل بذلك العذاب بكرهم وثيبهم .

وقد شدد الإسلام في عقوبة هذه الجريمة لآثارها السيئة وأضرارها في الفرد والجماعة .. ومع إجماع العلماء على حرمة هذه الجريمة ، وعلى وجوب أخذ مقتربها بالشدة إلا أنهم اختلفوا في تقدير العقوبة المقررة لها إلى مذاهب ثلاثة :

- ١ - مذهب القائلين بالقتل مطلقاً .
- ٢ - ومذهب القائلين بأن حده حد الزاني : فيجلد البكر ويرجم المحصن .
- ٣ - ومذهب القائلين بالتعزير .

المذهب الأول :

يرى أصحاب الرسول ﷺ ، والناصر، والقاسم بن إبراهيم والشافعي في قول : أن حده القتل ولو كان بكراً سواء كان فاعلاً أو مفعولاً به . واستدلوا بما يأتي :

١ - عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » .

٢ - وعن علي (أنه رجم من عمل هذا العمل) . أخرجه البيهقي .

قال الشافعي : وبهذا نأخذ برجم من يعمل هذا العمل محصناً كان أو غير محصن .

٣ - وعن أبي بكر : أنه جمع الناس في حق رجل ينكح كما ينكح النساء . فسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن ذلك فكان من أشدهم يومئذ قولاً علي بن أبي طالب عليه السلام حيث قال : « هذا ذنب لم تعص به أمة من الأمم ، إلا أمة واحدة صنع الله بها ما قد علمتم ، نرى أن نحرقه بالنار . فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد يأمره أن يحرقه بالنار » .. أخرجه البيهقي .

المذهب الثاني :

ذهب سعيد بن المسيب ، وعطاء بن أبي رباح ، والحسن وقتادة والنخعي ، والثوري والأوزاعي ، وأبو طالب ، والإمام يحيى ، والشافعي في قول إلى أن حده حد الزاني ، فيجلد البكر ويُغَرَّب ، ويرجم المحصن .

واستدلوا بما يأتي :

١ - أن هذا الفعل نوع من أنواع الزنا ، لأنه إيلاج فرج في فرج ، فيكون اللائط والملوط به داخلين تحت عموم الأدلة الواردة في الزاني المحصن والبكر ، ويؤيد هذا حديث رسول الله ﷺ : « إذا أتى

الرجل الرجل فهما زانيان » .

٢ - أنه على فرض عدم شمول الأدلة الواردة في عقوبة الزنا لهما ، فهما لاحقان بالزاني بطريق القياس .

المذهب الثالث :

ذهب أبو حنيفة ، والنووي بالله ، والمرتضى والشافعي في قول إلى تعذير مرتكب هذه الفاحشة ، لأن الفعل ليس بزن فلا يأخذ حكمه .. وقد رجح الشوكاني مذهب القائلين بالقتل ، وضعف المذهب الأخير مخالفته للأدلة ، وناقش المذهب الثاني فقال : « إن الأدلة الواردة بقتل الفاعل والمفعول به مطلقا مخصصة لعموم أدلة الزنا الفارقة بين البكر والشيب على فرض شمولها لمرتكب جريمة قوم لوط ، ومبطللة للقياس المذكور على فرض عدم الشمول لأنه يصير فاسد الاعتبار ، كما تقرر في الأصول » .

مبحث علمي في أضرار الشذوذ الجنسي :

ننقل ذلك البحث ملخصا من كتاب (القرآن والطب) للدكتور محمد وصفى حيث تتمثل تلك الأضرار فيما يلي :

الرغبة عن المرأة :

من شأن اللواط أن تصرف الرجل عن المرأة ، وقد يبلغ به الأمر إلى حد العجز عن مباشرتها ، وبذلك تتعطل أهم وظيفة من وظائف الزواج ، وهي إيجاد النسل .. ولو قدر لمثل هذا الرجل أن يتزوج فإن زوجته تكون ضحية من الضحايا فلا تظفر بالسكن والبالودة ولا بالرحمة التي هي دستور الحياة الزوجية ، فتقضى حياتها معذبة معلقة ، لا هي متزوجة ولا مطلقة .

التأثير في الأعصاب :

وإن هذه العادة تغزو النفس ، وتؤثر في الأعصاب تأثيرا خاصا : أحد نتائجه الإصابة بالانعكاس النفسي في خلق الفرد ، فيشعر في صميم فؤاده بأنه ما خلق ليكون رجلا ، وينقلب الشعور إلى شذوذ ، به ينعكس شعور اللائط انعكاسا غريبا فيشعر بميل إلى بنى جنسه ، وتتجه أفكاره الخبيثة إلى أعضائهم التناسلية .

ولا يقتصر الأمر على إصابة اللائط بالانعكاس النفسي ، بل هناك ما تسببه هذه الفاحشة من إضعاف القوى النفسية الطبيعية في الشخص كذلك ، وما تحدثه من جعله عرضة للإصابة بأمراض عصبية شاذة ، وعلل نفسية شائنة ، تفقده لذة الحياة ، وتسلبه صفة الإنسانية والرجولة ، فتحبى فيه لوثات وراثية خاصة ، وتظهر عليه عصبية كامنة تبديها هذه الفاحشة ، وتدعو إلى تسلطها عليه . ومثل هذه الآفات العصبية النفسية ، الأمراض السادية ، والماسوشية ، والفيتشزم ، وغيرها .

التأثير على المخ :

واللواط بجانب ذلك يسبب اختلالا كبيرا في توازن عقل المرء ، وارتبكا عاما في تفكيره ، وركودا غريبا في تصوراته ، وبلاهة واضحة في عقله ، وضعفا شديدا في إرادته . وإن ذلك ليرجع إلى قلة الإفرازات الداخلية التي تفرزها الغدة الدرقية ، والغدد فوق الكلى ، وغيرها مما يتأثر باللواط تأثيراً مباشراً ، فيضطرب عملها وتختل وظائفها . وإنك لتجد هنالك علاقة وثيقة بين (النور ستايتا) واللواط ، وارتباطا غريبا بينهما . فيصاب اللائط بالبله والعبط وشروذ الفكر وضياح العقل والرشاد .

السويداء :

واللواط إما أن يكون سببا في ظهور مرض السويداء أو يغدو عاملا قويا على إظهاره وبعثه . ولقد وجد أن هذه الفاحشة وسيلة شديدة التأثير على هذا الداء من حيث مضاعفتها له وزيادة تعقيدها لأعراضه ويرجع ذلك للشذوذ الوظيفي لهذه الفاحشة المنكرة وسوء تأثيرها على أعصاب الجسم .

عدم كفاية اللواط :

واللواط علة شاذة وطريقة غير كافية لإشباع العاطفة الجنسية ، وذلك لأنها بعيدة الأصل عن الملامسة الطبيعية ، لا تقوم بإرضاء المجموع العصبى ، شديدة الوطأة على الجهاز العضلى ، سيئة التأثير على سائر أجزاء البدن .

وإذا نظرنا إلى فسيولوجيا الجماع والوظيفة الطبيعية التي تؤديها الأعضاء التناسلية وقت المباشرة ، ثم قارنا ذلك بما يحدث في اللواط وجدنا الفرق بعيدا والبون بين الحالتين شاسعا ، ناهيك بعدم صلاحية الموضع وفقد ملاءمته للموضع الشاذ .

ارتخاء عضلات المستقيم وتمزقه :

وإنك إذا نظرت إلى اللواط من ناحية أخرى وجدته سببا في تمزق المستقيم وهتك أنسجته وارتخاء عضلاته وسقوط بعض أجزائه وفقد السيطرة على المواد البرازية وعدم استطاعة القبض عليها ، ولذلك تجد الفاسقين دائمي التلوث بهذه المواد المتعفنة بحيث تخرج منهم بغير إرادة أو شعور .

علاقة اللواط بالأخلاق :

واللواط لوثة أخلاقية ومرض نفسى خطير فتجد جميع من يتصفون به سيئ الخلق فاسدى الطباع ، لا يكادون . يميزون بين الفضائل والرذائل . ضعيفى الإرادة ليس لهم وجدان يؤنبهم ولا ضمير يردعهم ، لا يتحرج أحدهم ولا يردعه رادع نفسى عن السطو على الأطفال والصغار واستعمال العنف والشدة لإشباع عاطفته الفاسدة والتجرؤ على ارتكاب الجرائم التى نسمع عنها كثيرا ونطالع أخبارها فى الجرائد السيارة وفى غيرها . ونجد تفاصيل حوادثها فى المحاكم وفى كتب الطب .

النواط وعلاقتها بالصحة العامة :

والنواط فدو ما ذكرت يصيب مقترفيه بضيق الصدر ، ويرزؤهم بخفقان القلب ، ويتركهم بحال من الضعف العام ، يعرضهم للإصابة بشتى الأمراض ، ويجعلهم ذببة لمختلف العلل والأعصاب .

التاثير على أعضاء التناسل :

ويضعف اللواط كذلك مراكز الإنزال الرئيسية في الجسم ، ويعمل على القضاء على الحيوية المنوية فيه . ويؤثر على تركيب مواد المنى ثم ينتهي الأمر بعد قليل من الزمن بعدم القدرة على إيجاد النسل والإصابة بالعقم مما يحكم على اللائطين بالانقراض والزوال .

التيفود والدوسنطاريا :

ونستطيع أن نقول : إن اللواط يسبب بجانب ذلك العدوى بالحمى التيفودية والدوسنطاريا ، وغيرهما من الأمراض الخبيثة التي تنتقل بطريقة التلوث بالمواد البرازية المزودة بمختلف الجراثيم ، المملوءة بشتى أسباب العلل والأمراض .

أمراض الزنا :

ولا يخفى أن الأمراض التي تنتشر بالزنا يمكن أن تنتشر كذلك بطريقة اللواط ، وتصيب أصحابه ، فتفتك بهم فتكا ذريعا . فتبلى أجسامهم ، وتحصد أرواحهم .

مما تقدم نتبين حكمة التشريع الإسلامي في تحريم اللواط وتظهر دقة أحكامه في التنكيل بمقترفيه ، والأمر بالقضاء عليهم ، وتخليص العام من شرورهم .

بماذا أجاب القوم

لقد كان الجواب يدعو إلى الأسى ، وما كان ينبغي منهم أن يقابلوا النصيحة بالإعراض والدعوة إلى النجاة بالفظاظة والغلظة .

إنه الباطل إذا أفلس يختلق ، ويدعى ، ويعربد ، ولا أساس له من الحق ، ولا نصيب له من الصدق ، قال تعالى :

﴿ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾

فأعجب معي هل التطهر صار تهمة ؟ هل النقاء أضحي جريمة ؟ هل العفة أصبحت جناية ؟ إنهم يختلفون ويهرمون بما لا يعرفون ، ومثلهم في ذلك كمثّل القائل الذي يمدح قوماً ويصفهم بالشجاعة فيقول :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بين فلول من قراع الكتائب

سبحانك ربى هل أصبح النقاء والسمو الخلقي والتحلّى بالفضيلة تهماً يلام عليها صاحبها ، إذا لابد من

كلمة فصل تحكم هذا الصراع بين الحق والباطل ، بين السمو إلى علياء الطهر والارتكاس في حمأة الرذيلة ، وهل يملك كلمة الفصل إلا رافع السماء بلا عمد .

إن الباطل سيظل يعربد في عرصات الدنيا ، ولن يعربد إلا في غفلة أهل الحق ، وسيظل كذلك حتى يتصدى له الحق فيدمغه فإذا هو زاهق ، يلفظ أنفاسه الأخيرة .

وجاءت كلمة الفصل قال تعالى ﴿ فَأُنْجِيَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أى من الباقين في العذاب فقد خانت الله ورسوله ، لذلك استحققت هذا الجزاء .

لقد رجموا بالحجارة التي أشبهت المطر الغزير المدرار ، حتى جاء التعبير القرآني غاية في البلاغة عندما شبه الحجارة وكثرتها بالمطر الغزير ، قال تعالى ﴿ فَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فِسَاءً مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴾ (١)

ولهؤلاء القوم قصة فصلها العلي الحكيم في سورة هود ، فبعد أن نزلت الملائكة بالبشرى على إبراهيم توجهوا بعد ذلك إلى نبي الله لوط لينزلوا العذاب بالقوم ، فالملائكة رحمة بال صالحين ، كما أنهم ينزلون بالنعمة على أعداء الله الفاسقين ، ولنتقل إلى سورة هود لنستمع إلى تفصيل هذا المشهد قال سبحانه :

﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط * إن إبراهيم لحليم أواه منيب * يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود * ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب * وجاء قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد * قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد * قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد * قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب * فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد ﴾ (٢) .

شعيب عليه السلام وقومه

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقُومَ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ
بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ
وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ

وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي
أَرْسَلْتُ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾

المفردات : ﴿ يقال بخسه حقه ﴾ : أى نقصه . ﴿ الإفساد ﴾ : شامل لإفساد نظام
الاجتماع بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل وإفساد الأخلاق والآداب بارتكاب الإثم والفواحش .
وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام ، وإصلاحها : هو إصلاح حال أهلها بالعقائد الصحيحة ،
والأعمال الصالحة المزكية للأنفس ، والأعمال المرقية للعمران ، المحسنة لأحوال المعيشة .
﴿ والصراط ﴾ : الطريق . ﴿ توعدون ﴾ : تخوفون الناس . وروى عن ابن عباس أنهم كانوا يجلسون
في الطريق فيقولون لمن أتى إليهم إن شعبياً كذاب فلا يفتنكم عن دينكم ﴿ فكثركم ﴾ : أى بما بارك في
نسلكم .

يخبر الله سبحانه وتعالى أنه أرسل إلى أهل مدين نبياً كريماً هو شعيب على نبينا وعليه الصلاة والسلام ،
فإذا كان نبي الله لوط قد بعث إلى قوم انحرفوا بمجتمعهم إلى الحضيض ، والدرك الأسفل ، فأفسدوا فطرة
الله عندما أتوا الذكران من العالمين ، فإن نبي الله شعبياً عليه السلام قد بعث لقوم طغى عليهم المال ،
فطففوا المكيال والميزان .

وإذا كان المال عصب الحياة ، فإن الأنبياء بعثوا ليعلموا الناس الحلال والحرام ، بعد أن يأمرهم
بتوحيد الله تعالى ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً والحلال خير كله ، والحرام شر كله :

﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم
تفلحون ﴾ (١)

والمال إذا كان من الحلال يصير نعمة ينعم الله بها على عباده ، نعم المال الصالح للعبد الصالح ، فإذا
دخله الحرام صار نقمة على صاحبه ، فإنه لا تزول قدمك من بين يدي الله عز وجل حتى تسأل عن
أربع : شبابك فيم أبليت ، وعمرك فيم أفنيته ، ومالك من أين اكتسبته . وفيم أنفقته ، وعلمك ماذا
صنعت فيه .

وسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه هو من هو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكان الرسول يقول
عنه : (هذا خالى فليرنى امرؤ حاله) قال سعد : يا رسول الله سل الله أن يجعلنى مجاب الدعوة قال له :
(يا سعد أظب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، فوالذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف باللقمة
الحرام فى جوفه فلا يقبل الله منه دعاء ، ولا يقبل منه عمل أربعين يوماً ، ومن نبت جسمه من حرام فالنار
أولى به) (٢) .

(١) الآية ١٠٠ من سورة المائدة . (٢) أخرجه البخارى فى الأذان (٩٥) . ومسلم فى المساقاة (١٣٨) . والدارمى فى الرقاق (٦٠) .

وقد كانت الزوجات الصالحات يقلن لأزواجهن كلمة ليت نساءنا يعرفنها ، كانت المرأة تقول لزوجها سعيًا وراء لقمة العيش : يا فلان اتق الله فينا، ولا تأكل حراما ، إننا نصبر على الجوع في الدنيا ، ولا نصبر على عذاب النار يوم القيامة .

يا خدام الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وامدد يدك بحبل الله معتصما فإنه الركن إن خانتك أركان

ليست السعادة في الانتشاء بالكثوس المترعة ، أو الاستمتاع بالغيد الأماليد ، أو كثر المال ، إنما السعادة في غنى النفس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس .

سمع أحد الصالحين في مجلسه رجلا يقول : اللهم ارض عني . فقيل له : لو رضيت عن الله لرضى عنك . قال : فيكيف أَرْضِي عن الله ؟ قال له : يوم تَرْضَى بالنقمة رضاك بالنعمة ، فقد رضيت عن الله .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى يد
وإدراك الذي يأتي قريب ولكن الذي يمضى بعيد

لقد عرض نبي الله شعيب على قومه المنهج الرباني العظيم ، قال يا قوم : اعبدوا الله مالكم من إله غيره ومن مبدأ التوحيد والعقيدة يكون المنطلق إلى التشريع والتوجيه ، فمن عبد الله وحده فقد عرفه ، ومن عرف الله فقد اتقاه ، ومن اتقى الله فقد خاف من الجليل ، وعمل بالتنزيل ، ورضى بالقليل ، وأعد الزاد ليوم الرحيل .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى
تقلب عريانا ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه
ولا حشر في من كان لله عاصيا

يقول شعيب بعد ذلك لقومه : ﴿ قد جاءكم بينة من ربكم ﴾ أى لقد قامت الحجج والبراهين على صدقي وعصمتي من الكذب ، فأوفوا الكيل والميزان ، فإن المعاملة هي الركن العظيم في الدين ، لذا قال أحدهم : إذا أثنى على الرجل جيرانه في الحضر ، ومراقبوه في السفر ، ومعاملوه في الأسواق فلا تشكوا في دينه ، وفي الإيفاء وفاء ، والوفاء فضيلة .

ثم نهاهم عن البخس فقال ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ أى لاتنقصوهم حقهم ، فإن البخس

ضرب من ضروب الظلم ، والظلم مرتعه وخيم ، والظلم ظلمات يوم القيامة ، فالحرام لا يدوم وإذا دام لا ينفع ، والظلم لا يدوم وإذا دام دمر ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبثر معطلة وقصر مشيد ﴾^(١) ﴿ وكأين من قرية أملت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾^(٢) .
ثم ينههم عن الإفساد في الأرض ، فيقول ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾

وهذا محور الارتكاز لكل مجتمع فالإفساد له صور كثيرة ، فالظلم إفساد ، والرشوة إفساد ، والربا وسفك الدماء وهتك الأعراض والاعتداء على الناس إفساد .

ثم يقدم النصيح في صورة كريمة فيقول ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾
قيل لأعرابي : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل : ليته ما أمر ، ولم ينه عن شيء وقال العقل : ليته ما نهى .

إنه نداء الفطرة ومنطق الحق المبين فإذا كان الإفساد شراً كله فإن الإصلاح خير كله ، وقد جاء ذلك مفصلاً في سورة هود قال تعالى ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط * ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين * بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾^(٣) .

وفي سورة الشعراء يقول تعالى ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين * إذ قال لهم شعيب ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أوفوا الكيل ولا تكونوا من الخسرين * وزنوا بالقسطاس المستقيم * ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين * واتقوا الذي خلقكم والجليلة الأولين ﴾^(٤)

وفي سورة الأعراف ينههم شعيب عن قطع الطريق على الناس ، فإن للطريق حقاً ، بينه السيد الجليل محمد ﷺ في قوله : ﴿ فإن أيتم إلا الجلوس في الطرقات فأعطوا الطريق حقه . قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال كف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وغض البصر ﴾^(٥) .
يقول لهم شعيب ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ﴾

(١) الآية ٤٥ من سورة الحج .

(٢) الآية ٤٨ من سورة الحج .

(٣) الآيات ٨٤-٨٦ من سورة هود .

(٤) الآيات ١٧٦-١٨٤ من سورة الشعراء .

(٥) أخرجه البخاري في الاستئذان (٢) . ومسلم في اللباس (١١٤) وفي السلام (٣، ٢) . والإمام أحمد في (٤٧، ٣٦: ٣) .

أى تخوفون الناس وتهددونهم ، ﴿ تصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ﴾ أى تريدون الدعوة إلى الله معوجة بعد استقامتها ، بصد الناس عنها وتهديدهم وتخويفهم منها .

ثم يذكرهم بنعم الله عليهم فيقول ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ﴾ والكثرة فيها قوة ، وهى نعمة ، ثم يحذرهم من عاقبة المفسدين من الأمم السابقة التى أهلكها الله فيقول ﴿ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

وفى سورة هود يقول : ﴿ ويا قوم لايجرمكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربه رحيم ودود ﴾ (١) وفى سورة الأعراف يقول لهم بعدما عانى من عنادهم وصبره على إيدائهم ﴿ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾

حتى الأمر بالصبر لم يمثلوا له ولم يرضوا به ، إن الرسل لما قالوا لهم ﴿ ولنصبرن على ما أذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ (٢) قال لهم أهل الضلال والبهتان والظلم والطغيان ﴿ لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين * ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد * واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ﴾ (٣) .

انتهى الجزء الثامن ويليه بمشيئة الله تعالى الجزء التاسع مبدوءا بقوله تعالى :

* قَالَ أَلْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرِجَنَّكَ يَشُعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾

(١) الآيتان ٨٩، ٩٠ من سورة هود .

(٢) الآية ١٢ من سورة إبراهيم .

(٣) الآيات ١٣-١٥ من سورة إبراهيم .